لهذا أنا مسيحي

الراهب سارافيم البرموسي

فبراير ٢٠١٣

نسخة إلكترونيّة

وضعتَ يَدَكَ على المحراث

ولمَسَتَ طَرَفَ ثوب المُخلِّص وشعره

وتبلّلت من الندى المتساقط من اللّيل

فأرجوك ألاّ تتخلَّى عن هذه كلّها

القديس جيروم

لماذا أنا مسيحي؟

لماذا أنا مسيحي؟ لماذا المسيحيّة بالذات؟

إنه سؤال قد تُردِّده بينك وبين نفسِك في بعض الأوقات، وقد يكون تساؤل ممّن حولك بهدف المعرفة أو التشكيك، ولكن في كلّ الأحوال يجب عليك أن تفهم لماذا أنت مسيحي؟؟

يجب أن تعلم أنّ فهمك ووعيك بمَنْ أنت هامٌ للغاية، هذا الفهم أهم ما يصل إليه الإنسان في حياته لأنّه يؤثِّر في قراراته ومن ثمّ مصيره، لأنّ فهم مَنْ أنت؟ سيقودك لفهم أعمق وأهمّ هو لمَـنْ أنت؟؟

هناك مَنْ يَدْرِس ويُبْحِر في الكثير من العلوم والمعارف ويحوز الدرجات العلميّة ويتحصَّل على الشهادات المتنوِّعة ويصل صيته إلى الآفاق، ولكنّه لا يعرف مَنْ هو ولماذا يؤمن بما يؤمن به! إيمانه قد يكون شيئًا متوارثـًا أبًا عن جد، وهو مسيحي لا لشيء إلاّ لأنّه وُلِدَ هكذا!!

هل مثل تلك المسيحيّة تُمثـِّل إيمانًا صادقًا؟؟ وهل يخطو مثل هذا الإيمان بمَنْ يعتنقه (دون وعي) خطواتَ نحو الحياة الأبديّة؟ بل ويمكن أن نسأل هل يتمتّع مثل هذا المسيحي بإيمانه ويختبر حضور وعمل الله في حياته؟؟ بالتأكيد الإجابة القاطعة ستكون: لا.

ذات يوم كتب المتصوّف الإنجليزي والتر هيلتون *Walter Hilton* قائلاً: "إنّ الظلمة الحقيقيّة أفضل من النور الزائف!".

ماذا تعني تلك الكلمات؟؟

إنّها تضع أيدينا على التعرُّف الصادق على أنفسنا. فقد نسير في طرق نعتقد أنّها النور وهي ليست كذلك، في تلك اللّحظة يكون مَنْ في الظلمة وهم يعرفون تلك الحقيقة أقرب إلى النور ممّن يحيون في وهمٍ أنّهم في النور ولكنّه ليس سوى نور زائف!

والإنسانيّة هي، بكلمات القديس أغسطينوس: "مجتمع الحقيقة". فالوصول إلى معنَى إنسانيّتي يستوجب بحث صادق عن الحقيقة، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقّق بعيدًا عن مفهوم الحبّ؛ فالإنسان الحقّ هو مَنْ يبحث عن الحقّ فيلتقي الحبّ .. وقتها تبدأ النكهة الإنسانيّة في الحياة تتغيّر .. يبدأ الوجود يُغرِّد بأناشيد النور ..

سنجد في بحثنا القصير أنّ كلّ المسيحيّة تتمحور حول الحبّ، ولا يمكن فهم أيّة عقيدة مسيحيّة بعيدًا عن الحبّ، ولا يمكن إقامة علاقة حقيقيّة مع الله دونما حبّ، ولا يمكن ممارسة أي اختبار

مسيحي بحضور الله في أشكال مختلفة وبطرق مختلفة بعيدًا عن الحبّ. سنكتشف معًا أنّ الحبّ هو النقطة المركزيّة للحياة المسيحيّة والتي تجعل من الإيمان المسيحي ليس له مثيل ولا نظير ولا يمكن إعادة انتاجه تحت أيّة منظومة قيم ومبادئ أخرى، لأنّها ببساطة ستكون مبادئ بدون مسيح .. بدون نبع الحبّ، لذا سيبقَى النهر جافًّا ...

إنّ أيّة نظرة يحاول الإنسان أن ينظر بها إلى الله بدون المسيح ستكون نظرة ضبابيّة أكثر من كونها نظرة منيرة لحقيقة وجود الله ولكيفيّة مسيرة الإنسانيّة. ولعلّ كلمة "الله" من الكلمات المستخدمة في الكثير من المعتقدات إلاّ أنّها في المسيحيّة أصبحت معلنة واضحة مُحدَّدة مباشرة، في وجه الربّ يسوع الذي تجسَّد وعاش حياة إنسانيّة بالتمام ولكن دونما الخطيئة وأهوائها، فقدّم لنا عمق الشعور الإلهي تجاه البشر ومدى اهتمامه بالإنسان بشكل عملي، فقد كان يُسَخِّر كلّ طاقات الألوهة من أجل إنسان واحد ليكون أكثر سعادة في معرفته. ويمكن القول إنّ المسيح نَقَلَ نظريّة الحبّ الإلهي للبشريّة إلى اختبار الحبّ الإلهي للبشريّة كواقع مرئي وملموس في التاريخ الإنساني، فأصبح نقطة ارتكاز للتاريخ في التعرُّف على الله، نقلت كلّ النظريات حول الألوهة إلى واقع، فتبدَّدت الأساطير التي كانت تُنْسَج حول الألوهة.

يكتب فرنسوا مورياك *Mauriac* في كتابه "حياة يسوع" *La Vie de Jésus* فيقول:

أعترف بأنني لو لم أعرف المسيح،
لكانت كلمة 'الله' في نظري خاوية من المعنَى ..
إنني لم أركع خاشعًا إلاّ عندما غاص الله في الإنسانيّة وظهر،
في زمن مُحدَّد من الكرة الأرضيّة
إنسان من لحم ودم
ونطق بكلام معيَّن وقام بأعمال معيَّنة.

في المسيح، أمكننا حينما نتساءل حول موقف الله حيال أمرٍ ما، أن نرجع لننظر كيف تصرّف المسيح وماذا قال لندرك مشيئة الله. الأمر لم يصبح بعد غامضًا بل واضحًا وضوح الشمس الصيفيّة في كبد السماء وقت الظهيرة.

لذا فإنّ أوّل نقاط انطلاق مسيحيّتنا هي الإيمان بالله في المسيح بالروح؛ أي الإيمان بآب واحد مصدر للوجود وسبب للوجود. وبابن وحيد أزلي مساو لأبيه في الجوهر الواحد هذا الابن قام بعمل خاص من أجل البشريّة إذ تجسّد ومات وقام وقدّم لنا الفداء الإلهي كحقيقة لكلّ إنسان يقبلها

ويُفعِّلها في حياته. وبالروح القدس الناقل لكلّ أفعال المسيح في قلب الإنسان المسيحي كما يهب الإنسان من القوّة والبصيرة ما يجعله يستطيع أن يسير في الابن نحو الآب لميراث معدّ للثابتين في الحبّ إلى المنتهى.

لذا أتمنّى أن تبدأ معي بفحص إيمانك وتقف أمام نفسك لتتساءل لماذا أنا مسيحي؟؟ هذا السؤال سيجعل من إيمانك اللاّحق، إيمانًا حقيقيًّا يقترب بك من نبع الحبّ القادر وحده أن يُغيِّر حياتك ويبذر البهجة والفرح والسلام الحقيقي في قلبك لتدرك معنى الحياة ومعنى الوجود ...

وقتها يمكنك أن تَجْهَر وتقول:

لهذا أنا مسيحي ..

أنا مسيحي لأني أبصرت عمق حبّ الله على الصليب

في التاريخ المعاصر تأتي النازيّة العنصريّة كإحدى أقسَى مظاهر الانحدار الإنساني نحو الحيوانيّة اللاآدميّة، إلاّ أنه من وسط تلك الفترة من الظلمات الحالكة تأتي بعض الشهادات من النور لتقول إنّ الأمل قائم ولكنّه الأمل المثبّت في صليب المسيح.

في خِضَمِّ الأحداث الجِسَام التي ألمّت باليهود الألمان ووسط محاولات للفرار من المصير المحتوم على يدّ نظام عنصري، نُسطّر شهادة مسيحيّة حيّة.

قَبِلَت هانّه *Hanna* المخاطرة بأن تأوي لديها أسرة يهوديّة الأمر الذي عرفت به السلطات ممّا أدى إلى فرارها مع تلك الأسرة، إلاّ أنّ زوجها وقع في أيدي السلطات وأطلقوا عليه النيران حينما رفض التعاون مع الحزب النازي. وبعد ذلك بعدّة أيام تنامَى إلى سمعها أنّهم قبضوا على والدتها المُسنّة وأختها ذات العشرين ربيعًا حتى تُسلّم هانّه الأسرة التي تأويها، إلاّ أنّها ثبتت على موقفها.

أُعْدِمَت الأم والأخت بعد ٢٤ ساعة من القبض عليهن. عرفت هانّه بالأمر فما كان منها إلاّ أن أجهشت في البكاء وخرجت إلى الغابة إذ قد ثبّتت صليبًا خشبيًّا على إحدى الأشجار وانطرحت أمامه تُصلّي باكية. وبينما كانت تُصلّي خرجت الأسرة اليهوديّة من المنزل لتقول لها إنّها ستسلّم نفسها للسلطات، وتعتذر لما لحقها من آلام إزاء موقفها تجاههم. فما كان منها إلاّ أن وقفت وقالت: ستظلوا معي حتّى آخر نفس من حياتي؛ إمّا نموت معًا وإمّا نحيا معًا!

فتعجّبوا منها وقالوا: ما الذي يجعلك تخاطرين بهذا القَدْر من أجل أسرة يهوديّة وليست على الأقل مسيحيّة مثلك؟! فأجابت وهي تحوّل نظرها إلى الصليب:

هذا الصليب علّمني كيف أحبّ،
ومَنْ أحب،
ولماذا أحبّ،
فلقد مات يسوع على الصليب من أجل الجميع،
وأنا سأموت معه إن اقتضَى الأمر عن الجميع.
هذا هو الحبّ الذي يُصيّر كلّ شيء جديدًا.

وقبّلت هاتّه الصليب الخشبي وسط ذهول تلك الأسرة ودموعها المنحدرة.

أوّل أسباب كونك مسيحي هو نظرة للصليب .. تلك الخشبة المرتفعة على رابية الجلجثة. على تلك الخشبة الخشنة يتمدَّد جسد مُمزّق من الألم ومثخن بالجراح ومُكلَّل بأشواك حادّة ومُسمَّر بمسامير تمنعه من الحركة. قد تتساءل هل يكفي أن أنظر إلى مصلوبٍ لأكون مسيحيًّا؟ ألم يكن هناك مصلوبين كُثُر عبر التاريخ؟ دعني أكمل لك، أن هذا ليس مدعاة للإيمان بالفعل، ولكن أن تدرك أنّ السبب في هذا الألم الشديد وتلك الميتة القاسيّة هو أنه يحبّك أنت، ويريد لك أن تحيا في سعادة دائمة، هنا يتغيّر الأمر.

أَنْتُمُ الَّذِينَ أَمَامَ عُيُونِكُمْ
قَدْ رُسِمَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ بَيْنَكُمْ مَصْلُوباً!

(غل٣: ١)

هناك صورة شهيرة للمسيح ترسم وجه المسيح المُكلَّل بالشوك وعيناه تنظران إليك من بين تورّمات الوجه لتقول لك:

أحبك هكذا، وأنت؟؟

بل إنّ رامون جوميز *Ramon Gomez* يُصوّر لنا نظرة المسيح عقب تسليم الروح، ويذهب إلى القول:

المسيح بعينيه المغلقتين
ينظر إلينا من خلال الجرح نظرات دامية

لم يُحبّك المسيح وهو في سمائه مصدرًا قرارًا ملكيًّا بالعفو عن الخطيئة، ولم يُرْسِل لك ملاكًا ليُجدِّد لك طبيعتك ويستعيد لك إمكانية العلاقة مع الآب من جديد. ولكنّه جاء متجسِّدًا لأنّه يحبّك .. تألَّم مظلومًا لأنّه يحبّك .. مات ميتة العار لأنّه يحبّك .. قام بمجد الألوهة لأنّه يحبّك .. صعد إلى السماء وجلس عن يمين القدرة في الأعالي كشفيع في البشريّة بذبيحته لأنّه يحبّك .. وسيأتي مع جَمْعِ ملائكته ليجمع مختاريه لأنّه يحبّهم ... إنّ قوّة الدفع الإلهيّة، إن جاز التعبير، هي الحبّ المصلوب، هل مثل هذا الحبّ يمكن أن يُرْفَض؟؟

لهذا نُصلّي بحرارة الكلمات في القداس الغريغوري موجّهين خطابنا للربّ يسوع ونقول:

أظهرت لي تدبير تعطُّفك
احتملت ظُلْمَ الأشرارِ
بذلت ظهركَ للسياطِ
خدّيك أهملتهما للّطْمِ
لأجلي يا سيّدي
لم تَرُدَّ وجهك عن خِزي البصاقِ

إنّ الكلمة المحوريّة في هذه الصلاة هي "من أجلي يا سيّدي"، فأنا محور هذا الفداء المؤلم.

قيمة ألم الربّ يسوع بالنسبة لك هي قيمة شخصيّة؛ فهو تألّم من أجلك أنت لكي لا تملك الخطيئة عليك وتمتلكك إلى الأبد، بل لتَصِر مدعوًّا للحياة الأبديّة وتأخذ إمكانيّة تطهير مستمرّة وفعّالة، من خلال دم المسيح الجاري بلا توقُّف، إمكانية أن تغتسل كلّما اتّسخ ثوبك بأوحال الخطيئة وأتربة الشهوات المتعدّدة.

هناك مكان للاغتسال الدائم من إثمك وخطيئتك؛ إنّه صليب المسيح ودمه المنسكب والذي لا يتوقّف أبدًا لكي يُطهِّر كلّ مَنْ يُقْبِل إليه ويعيد إليه ثياب أشواقه البِكر ومحبّته الأولَى نظيفة لامعة بهيّة ليكون مؤهّلاً للدخول إلى العرس معه ليتعشَى العشاء الأبدي الذي لا ينتهي برفقة هذا الذي مات لأنّه يُحبّك.

أتريد أن تعرف ما الذي فعله المسيح من أجلك أنت ؟؟

إنّه ضحَى بذاته طواعية ليحييك أنت من بعد الموت ..
قَبِلَ ما يلاقيه الأشرار وهو بريء،
ليُصيّرك أنت بارًا مبرّرًا في عيني الآب ..

امتُهِنَت كرامته،
ليَرد لك كرامتك التي تمتهنها الخطيئة ليل نهار ..
انحنى منطرحًا على الأرض العارية ليرفعك أنت من التراب،
ويقيمك بيده الحانية للمسير من جديد، مُشجّعًا إياك ..
رُفِضَ لتصير أنت مقبولاً ..
جُرِحَ لتصير أنت صحيحًا ..
تآمروا عليه،
ليُبْطِلَ مؤامرة الشيطان عليك وينجيّك من فخ الصيّاد ..
بيعَ ليشتريك للحريّة ..
جُلِدَ ليحمي ظهرك من سياط العالم وقسوته ..
تعرّى ليستر عري إثمك وخجل ماضيك وحاضرك ...
سُمِّر بلا حراك ليُطْلِقك حُرًّا كالطير السابح في السماوات ..

هذا هو المصلوب الذي يحبّك محبّة أبديّة .. محبّة لا نهائيّة .. محبّة تفوق قدرات البشر على الحبّ .. محبّة مجانيّة .. محبّة غير مشروطة .. محبّة مُحرِّرة .. محبّة شافية .. محبّة الصليب التي لا تضاهيها محبّة.

لقد تحدّث إشعياء النبي عن العبد المتألِّم (٥٣) في استباق نبوي للمسيّا المزمع أن يُحرّر شعبه من خطاياهم، ها هو يرسم ملامحه وكأنّه جاثيًا تحت الصليب يرصد ويكتب ما يراه فيقول:

مَنْ صدَّق خَبَرَنا ولمَن اسْتُعْلِنَت ذراع الرَّبِّ؟
نَبَتَ قُدَّامَهُ كَفَرْخٍ وَكَعِرْقٍ من أرضٍ يابسةٍ
لاَ صورةَ له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه.
محتقرٌ ومخذولٌ من الناس، رجل أوجاعٍ ومختبرُ الحزنِ
وكمُسَتَّرٍ عنه وجوهنا، محتقرٌ فلمْ نعتدَّ به.
لكنَّ أحزاننا حَمَلَها وأوجاعنا تحمَّلها.
ونحن حسبناهُ مُصاباً مضروباً من اللّٰه ومذلولاً.
وهو مجروحٌ لأجل معاصينا، مسحوقٌ لأجل آثامنا.
تأديبُ سلامنا عليه وبحُبُرِهِ شُفينا.
كلُّنا كغنمٍ ضللنا. مِلْنَا كلُّ واحدٍ إلى طريقه
والرَّبُّ وضع عليه إثم جميعِنا.
ظُلِمَ أمَّا هو فتذلَّل ولمْ يفتحْ فَاهُ

كشاةٍ تُسَاقُ إلى الذَّبْح وكَنَعْجةٍ صامتةٍ أمام جازِّيها
فلمْ يَفْتَحْ فَاهُ.
من الضُّغْطَةِ ومِن الدَّيْنُونَةِ أُخِذَ.
وفـي جيله مَنْ كان يَظُنُّ أنَّه قُطِعَ من أرض الأحياءِ
أنَّه ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي؟
وجُعِلَ مع الأشرار قبره ومع غنيٍّ عند موته.
على أنَّه لم يعمل ظُلْمًا ولم يكن في فمه غشٌّ.
أمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بأن يَسْحَقَهُ بالحُزْنِ.
إن جعل نفسهُ ذبيحة إثمٍ
يَرَى نَسْلاً تَطُولُ أيَّامه ومسرَّةُ الرَّبِّ بيده تنجح.
من تعب نفسه يرى ويشبعُ
وعبدي البارُّ بمعرفته يُبَرِّرُ كثيرين وآثامهم هو يحملها.
لذلك أقسمُ له بين الأعزّاءِ ومع العظماءِ يَقْسِمُ غنيمةً
من أجل أنَّه سكب للموتِ نفسهُ وأُحْصيَ مع أثمةٍ
وهو حَمَلَ خَطِيَّة كثيرين وشفع في المذنبين.

إنّ هذا الجسد الدامي والمُعلَّق بين لصوصٍ على صليب خارج أورشليم، والمُدان كمجرمٍ خطير وككاسر للناموس ومُسبّب للفتنة، والذي خانه أقرب أقربائه وجاز فيه حُكْمِ الموت بمؤامرة رجال الدين اليهودي وسلطان الأمم، هو مركز الوجود، إنّه محور الحياة، هو الإعلان النهائي لله الآب عن مقدار الحبّ الذي يُحبّ به البشريّة. الآب يُحبّنا بمقدار ذبيحة المسيح، ابنه الوحيد، الإله الحقّ من الإله الحقّ، النور من النور، كما نَنْشِدُ في قانون الإيمان.

لقد وَرَدَت في إنجيل القديس يوحنّا الآية الشهيرة التي تُجسِّد هدف الخلاص ليحيا الجميع مع الله في فرحٍ سمائيٍّ، إذ يقول:

لأنَّه هكذا أحبَّ اللَّهُ العالمَ حتَّى بَذَلَ ابنهُ الوحيد
لكي لا يهلك كلُّ مَنْ يُؤْمِنُ به
بل تكون له الحياة الأبديَّة

(يو٣: ١٦)

توقّفت ذات مرّة عند كلمة "هكذا"، ماذا تعني؟؟ تصوّرت للحال أنّ القديس يوحنا وكأنّه يشير إلى أيقونة المصلوب ويقول: هكذا أحبّ الله العالم .. أحبّ العالم بالموت من أجل حياة العالم. "هكذا" تعني "بهذه الطريقة" *in this manner, in this way* لا توجد طريقة أخرى للحبّ سوى البذل، ولا يوجد طريق آخر للحبّ سوى طريق الجلجثة.

فالربّ من أجلّ مسرّته الحقّ بتحررينا صَبَرَ على الصليب بما يحمله من خزيٍّ وعارٍ ومذلّة وألمٍ. لذا يجب أن نُثبِّت أعيننا نحوه مُدْركين قيمة الألم الهائل الذي لاقاه الربّ يسوع.

ناظِرين إلى رئيسِ الإيمانِ ومُكَمِّلِه يسوع،
الَّذي من أجلِ السُّرور الموضوع أمامه
احتمل الصَّليبَ مستهينًا بالخزي،
فَجَلَسَ في يمين عَرْشِ اللهِ

(عب١٢: ٢)

في حديثٍ لي ذات مرّة مع أحد الآباء تطرّقنا إلى آلام المسيح فكانت كلماته: إنّ مقدار ألم المسيح لم يكن ألم الجسد فحسب، فهناك الكثيرين قُطِّعوا إربًا بدرجة قد تفوق ما تعرّض له المسيح، بحسب تعبيره، إلاّ أنّ الألم الهائل للمسيح أنّه "صار خطيئة" .. حَمَلَ كلّ خطايا البشريّة بما فيها من خزيٍّ وعار وما تُثقَّل به النفس من ظلمة ... هذا هو الألم الذي لم يعانِه بشريٌّ مخلوقٌ قط. لهذا فإنّ أيقونة المسيح المنتصب وهو مائل برأسه إلى أسفل في خضوع الحزن حاملاً قصبة في يديه (تُسمَّى أيقونة العريس في الكنائس الشرقيّة) تُعبِّر بدقّة عن الألم الداخلي غير الظاهر الذي عاناه الربّ يسوع بدرجة تفوق كلّ الصور التي تتفنّن في تصوير آلاماته الجسديّة ومظاهر الدماء والجراح.

هذا الألم الداخلي ترسمه كلمات إشعياء النبي في الحديث عن وحدة الألم والتي قد تظهر بشكل أوضح بالإنجليزيّة وهي *Lonliness of pain*، إذ يكتب:

قد دستُ المعصرة وحدي ومن الشُّعوبِ لم يكن معي أحدٌ

(إش٦٣: ٣)

لقد صرخت الجموع أمام بيلاطس وقت أن عرض عليهم إطلاقه، قائلين: ليُصلب .. ليُصلب!!

كانت كراهية الجموع تزيد من وحدة المسيح (بحسب التعبير الإنساني) في وقت آلامه إذ أنّ كلّ أعماله الخيّرة التي أغدق بها على جموع أورشليم واليهوديّة لم تستطِع أن تتجلّى حبًّا وعرفانًا بالجميل في تلك اللّحظات القاسية!

في العام ٢٠١١ كان مَقْتَل الطالب أيمن نبيل في ملّوي مدهشًا لكثيرين إذ كان يبلغ من العمر ١٧ عام وكان سبب استشهاده هو رفضه أن يَخْلَع عنه الصليب الذي يرتديه؛ فكانت طعنات الكراهيّة التي أردته قتيلاً بل بالأحرى شهيد الصليب!!

إلى هذا الحدّ نجد أنّ مُجرّد صليب مُعلّق أو صليب مرتفع على قبّة كنيسة أو صليب يرتديه رجل أو امرأة يثير سخط العالم؟!

إنّ ما يثير السخط الحقيقي هو الحبّ الصامت الذي يُمثـّله المصلوب أمام فيضان الكراهية؛ فالعالم لا يحتمل حبًّا صامتًا لأنّه يفتك بكراهيّته الدمويّة. إلاّ أنّه لا سبيل آخر سوى الحبّ الصامت الغافر على شاكلة المصلوب المعلَّق ليتحقّق ملكوت الحبّ / ملكوت الله.

لا يمكن للحبّ إلاّ أن يُصْلَب من العالم؛ كبرياء العالم وأنانيته ومصالحه تأبى نقاوة الحبّ وطهر الحبّ وصفاء الحبّ ومجانيّة الحبّ ... وعليك دائمًا الاختيار؛ أين ستقف؟؟ مع القائلين: ليصلب، لأنّ طُهْرَ المسيح يبُكِّت خطيئتك، أم مع القيرواني الذي حَمَلَ معه الصليب ومع المريمات المخلصات الباكيات تحت صليبه لأنّ الحبّ غيّر طبائعهم فأصبحوا لا يحتملون حياة بلا حبّ ... حياة بلا يسوع ...

مثل هذا الحب يجعلك مسيحيًّا تتبع هذا الذي أحبّك بهذا القَدْرِ أكثر من كلّ مَنْ حولك مهما كانوا ذوي قربَى لك .. فالصليب مُبرِّر لإتّباعي المصلوب ..

يكتب القديس غريغوريوس النزينزي، فيقول:

أنا أحبّه بكلّ نقاوة الحبّ،
لأنه مُخْلِص لأحبّائه بدرجة تفوق التصوُّر ..

تلك الكلمات تُفسِّر العلاقة التي يمكنها أن تُنْتِج عمالقة الروح ورجال الله وقدّيسي الكنيسة؛ إنّها علاقة إدراك الحبّ وردّ فعلٍ تجاه هذا الحبّ.

لقد كتب الشاعر الأفريقي الأمريكي جيمس والدون جونسون بشكلٍ رمزيٍّ تخيليٍّ مُتحدّثًا عن فِعْلِ الخِلقة كفعل حبٍّ كما لأمٍّ تنحني على طفلها، قائلاً:

هناك من قاع النهر غرف الله الطين
وعند ضفّة النهر ركع على ركبتيه
وهناك، الإله العظيم القدير
الذي صنع الشمس ووضعها في كَبِدِ السماء
والذي قذف بالنجوم إلى أقصَى الأركان البعيدة في اللّيل
الذي شكَّل الأرض في وسط يده
الإله العظيم،
مثل أمٍ تنحني برفقٍ نحو طفلها
هكذا رَكَعَ الله في التراب
مُشكّلاً قطعةً من الطين
حتّى شكّلها لتكون على صورته
ثمّ نفخ فيها نسمة حياة ..

أتذكّر أنني كنت قد خطّيت ذات مرّةٍ بعض الكلمات عن الحبّ، جاء فيها: "الإنسان يحبّ إن اتَّصل قلبه بقلب الله بجسرٍ من نورٍ، هو الثقة بالأبدية في عالمٍ نسبيٍّ زائلٍ .. إنّ الحُبَّ ليس مهنةً نحترفها بالتعلُّم، ولكنَّه نعمة نتقبّلها بخضوعٍ في سكينة ...". فسأل أحد الشباب: هل الحبُّ نعمة؟؟ ألسنا أصحاب القرار في الحبّ من عدمه؟؟ وقتها دار بيننا نقاش بدأ من نقطة تعريف الحبّ في المسيحيّة، ووجدت أنّ الحبّ في المسيحيّة كثيرًا ما يختلط في أذهان البعض بالحبّ القائم على حركة المشاعر أو الحبّ القائم على أشكال اجتماعيّة، أو الحبّ القائم على موروثات ... إلخ. لذا نحن في حاجة دائمة ومستمرّة لتعريف الحبّ المسيحي، نظرًا لاستمرار العالم في تصوير الحبّ بأشكالٍ لا علاقة لها بالحبِّ من قريب أو من بعيد.

الحبُّ المسيحي هو حبٌّ باذلٌ، يمكن أن يكون هذا هو أقصر تعريف ممكن للحبّ؛ نظرة إلى الصليب كما قلنا في البداية تُعرِّفنا معنَى الحبّ وتكلفة الحبّ الحقيقيّة.

بدون النظر إلى الصليب لا يمكننا أن نفهم الحبّ على الإطلاق وذلك لأنّ الحبّ دائمًا هو تحرُّك نحو الآخر .. نحو سعادته وراحته وعونه وسنده ودعمه وحمايته .. إلخ. هذا ما قام به المسيح إذ تحرّك نحو

البشريّة (التجسُّد) لينتشلها من بين أشواك الخطيئة والموت والفساد، تطلَّب هذا الأمر أن يُجْرَح ليستطيع أن يُخلّصنا من الأشواك.

كانت لوتي مون مُرْسَلة في الصين أثناء ثورة البوكسر التي بدأت في عام ١٩١١ وكانت من نتائج تلك الثورة مجاعة ألمّت بالبلاد مات على إثرها مئات الآلاف. بعثت بالعديد من الرسائل إلى المؤسّسة التي تنفق على تواجدها الخدمي في الصين لترسل بعض الأموال لتنجّي بعض النفوس من حصاد الموت الهادر، قائلة: "ما لم تصل معونة فإن من واحد إلى ثلاثة ملايين حتمًا سيهلكون جوعًا. بنس واحد حتّى الحصاد القادم سوف ينقذ نفسًا من الموت يوميًّا. كيف يمكننا أن نجلس إلى موائدنا المتخمة ونعرف مثل هذه الأمور ولا نبالي؟". إلاّ أنّ طلبها قوبل بالرفض.

فما كان منها إلاّ أن قرّرت أن تشارك مَنْ حولها في مصيرهم المحتوم وكانت تُنقذ بطعامها ورواتبها مَنْ حولها بينما كانت تحتضر من الجوع إذ أخذت عهدًا على نفسها ألاّ تأكل بعد الآن طالما أصدقاؤها الصينيون جوعَى. وبالفعل قدَّمت حياتها من أجل أن تشارك مَنْ حولها الحبّ والعطاء غير المحدود ولم تهرب وقت الضيقة، وكان ذلك في ليلة الكريسماس عام ١٩١٢.

لقد تحدّث القديس بولس عن الحبّ المتجسِّد ووصفه بالإخلاء؛ « لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ » (في٢: ٧). إخلاء يعني التخلّي عن حقوق أصيلة من أجل الآخر. فلقد تخلّى الربّ يسوع عن حقوقه كإله غير قابل للألم، حينما قبل الألم في الجسد الذي أخذه من العذراء مريم، ليشير إلى أنّ قانون الحبّ هو "التخلِّي من أجل". إن أحببنا حبًّا مسيحيًّا فنحن نتخلَّى عن حقوقٍ أصيلةٍ من أجل راحة وسعادة الآخر مهما كان هذا الآخر.

أوضح هذه الحقيقة القديس بولس قائلاً: « أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَجُولَ بِأُخْتٍ زَوْجَةً كَبَاقِي الرُّسُلِ وَإِخْوَةِ الرَّبِّ وَصَفَا؟ » (١كو٩: ٥). تلك حقوق إنسانيّة لم تلغها المسيحيّة ولكن القديس بولس تخلّى عمّا هو حقّ أصيل له من أجل التجنُّد لملكوت الله بالكمال والتمام. هذا موقف ينبع من حبّ الإخلاء الذي غَرَسَه الربّ يسوع في قلبه.

ألم يحقّ للقديس أنطونيوس أن يتزوّج ويقيم أسرة ويحيا حياة مسيحيّة أسريّة؟؟ بالطبع له كلّ الحقّ في ذلك، ولكنه آثر أن يتخلّى عن حقوقه من أجل لقاء أعمق مع المُخلِّص. إنّها ردّة فعل على الحبّ الإلهي للربّ يسوع الذي قدّم كلّ شيء .. كلّ شيء .. وجد أنطونيوس الشاب نفسه لا يملك إلاّ أن

يقدّم حياته ذبيحة حبّ فتنسمها الآب رائحة عطرة لأنها مُعطَّرة بإخلاء المسيح ونابتة من أرض محبّته التي زرعها في أرواحنا بالروح القدس.

الحبّ المسيحي لا يعرف الأنا لأنّه دائمًا يبدأ من كلمات القديس بولس: « لا أنا بل المسيح » (غل٢: ٢٠).

ولكن مَنْ هو المسيح؟؟

لقد عرّف المسيح حضوره في العالم بالفقير والمريض والجوعان والمسجون والعريان والمتألِّم، ويمكن أن نضيف المهمّش والمنبوذ والوحيد والمجروح .. إلخ. إن لم يكن حبنا حركة نحو هذا الآخر لا نحو ذواتنا لا يُسمّى حبًّا.

ذات يوم جائني أحد الشباب بتساؤل حول مَنْ يُقدِّم الحبّ من غير المسيحيين بشكلٍ كبير، كان السؤال حول موقفه وهو الذي يُقدِّم أكثر من مسحيين كُثُر؟؟ جعلني هذا السؤال أفكِّر بالفعل ما الذي يُميّز الحبّ المسيحي عن غيره بدون أن أُجمِّل ما أعتنقه.

وجدت أن الحبّ المسيحي يجب أن يكون حبًّا متجرِّدًا من كلّ شيء كذبيحة للمسيح وحده. فهناك الكثير من الناس يُقدِّمون أعمالاً خيريّة، وهذا حسنٌ بالفعل، ولكن هل هذا يندرج تحت عنوان الحبّ المسيحي؟؟ هنا نبحث عن تجرُّد الحبّ. إن كان يُقدِّم من أجل أن يظهر أمام المجتمع في شكل رجل الصلاح، فإنّه يستوفي أجره. إن كان يُقدِّم من أجل إقامة علاقات طيّبة مع قيادات المجتمع الديني كرجل معطاء، فإنه يستوفي أجره. إن كان يُقدِّم للتهرُّب من ضمير مثقّل بخطايا وكأنه يُكفِّر عن خطيئته بعطاياه، فإنه مخدوعٌ لأنّ الله يطلب قلب الإنسان وحياته لا أمواله. إن كان يُقدِّم لينال تكريمًا في حياته أو بعد مماته، فإنّه يكون قد استوفى أجره .. إلخ. ولكن إن قدَّم بشعور المرأة ذات الفلسين التي تُقدِّم كلّ ما تملك للربّ وهي تستشعر في داخلها أنّ ما قدّمته أقل من الواجب فيزيدها هذا الشعور اتّضاعًا ومن ثمّ قبولاً لدى الآب، هنا يمكن أن نطلق على التقدمة: تقدمة حبّ، لا لأنّها قدّمت كلّ ما تملك فقط، ولكنّها قدّمته بشعورٍ صادقٍ من الخجل أمام كلّ عطايا الله الصالحة.

إذًا الحبّ المسيحي هو:

١ـ حبٌّ باذل.

٢ـ حبٌّ لا يعرف الأنا.

٣ـ حبٌّ يتنازل عن الحقوق الخاصّة من أجل الآخر.

٤ـ حبٌّ مُتجرِّدٌ مليء بالاتضاع.

مثل تلك التركيبة من الحبِّ لا يمكن أن ينالها الإنسان بقواه الإنسانيّة، بل هي نعمة إلهيّة لمَنْ أقام جسرًا من نورٍ بين قلبه وقلب الله، هو اتضاع القلب الصادق أمام عظمة الله. فبدون أن نتّضع أمام الله لا يمكننا أن ننال أيّة نعمة وعلى رأسها نعمة الحبّ المسيحي.

يكتب العالم الكتابي جاري بورج أستاذ العهد الجديد بكليّة ويتون، فيقول:

المسيح لم يأت إلى العالم ليُغيّر عقل الله على الصليب،
بل المسيح جاء للعالم ليُظْهِر عقل الله.
هذا هام جدًّا. فأنا أرى عقل الله في يسوع،
وهذه عطيّة لا تُقدَّر بثمنٍ،
ولا يمكن أن يُقدّمها لي أي دينٍ آخر

لهذا أنا مسيحي .. لأنني وقفت أمام صليب المسيح فرأيت فكر الآب من نحوي في صليب ابنه وقتها بدأت اغتسل من كلّ آثامي مدركًا أن تطهيري معادل لآلامه ونظرت حولي فوجدت أنه لا يوجد حولي مَنْ يستطيع أن يحبّني بهذا القدر غير الموصوف ...

أنا مسيحي لأنّي ابن الحبّ الذي ولدني من جديد في نفس العالم ولكن بأعين جديدة تستطيع أن تلمس جراح الإنسانيّة بمرهم الحب، وإذ بها تشفَى ...

أنا مسيحي لأنّ الصليب يُفسِّر لي الحبّ ولأنّ الحبّ يُفسِّر لي الصليب .. وخارج المسيح لا يوجد تفسير للحبّ ولا للألم فكلاهما شقاء!!

ربي الحبيب يسوع
هبني أن أبصر مقدار الحبّ الذي أحببتني به؛
حبّ الصليب المجيد ..
هبني أن أدرك أن مسيحيّتي ليست عبثًا
ولكنّها ثمينة بقدر دمائك ..
هي مُكلِّفة بقدر جراحاتك ..
جدّد مفهومي عن إيماني يا إلهي

لأحيا واضعًا نصب عيني مثال الصليب ..
أُحفر في قلبي أيقونة الموت المحيي
لئلا أسير وراء أيقونات العالم المميتة ..
دع طَرَقَات المسامير تصدح في أذني
كلّما ابتعدت عن الحبّ المصلوب ..
دع وخزات الشوك تنخس ضميري
كلّما أخفقت في الحبّ المتألّم من أجل الجميع ..
لا أريد أن أكون مسيحيًّا اسمًا وشكلاً
بل مسيحيًّا بقوّة عمل الصليب ..
اجذبني وراءك فأجري وأجري وأجري
ولا أتعب من السير وراءك
أنت وحدك
يا مَنْ تحبّه نفسي.

أيّها الإله الحبّ
المسكوب طيبًا على أتربة عالم الفناء
لتعطّرها بأريج القداسة
لم نتعلّم الحبّ في مدارس نعمتك بعد
توهّمنا الحبّ فينا ونحن فيه
وإذ بنا لسنا من كرمته ننبت
فحبّك يعني الآخر
حبّك يعني البذل بفيض السرور
حبّك يعني القيامة ببشريّة مفتداة من براثن الموت
حبّك يعني غفران مكلّف
حبّك يعني صراع أبوّة الراعي فداء الخراف
حبّك يعني تحرير مَنْ هُم أسرى ذواتهم
حبّك نهرٌ جارٍ لا تدنّسه أوحال خطيتي
بل يجرفها إلى بحر النسيان
مبقيًّا على رجاء الحياة نضرًا في قلب التائب
فاطلعني على سرّ الحبّ في مخدع الصلاة

> واسكبه نورًا في قلبي ينفجر نهارًا
>
> لا يعقبه غروب ولا مساء
>
> أبد الدهور ...
>
> أمين.

أنا مسيحي لأني عرفت ما يعدّه المسيح لي في الحياة الجديدة

هل استمعت من قبل إلى رائعة هاندل الموسيقيّة عن المسيّا؟ يقول هاندل عن الجزء الذي دوَّن فيه الجزء الخاص بـ "الهللويا" للخورس، إنّه رأى السماوات مفتوحة والربّ جالس على عرشٍ أبيضٍ ناصعٍ. بالطبع لم يرها رؤى العين إلاّ أنّ مشاعره كانت تتّجه ببصيرته إلى هذا المشهد أثناء كتابته لتلك المعزوفة الرائعة، فكانت الهللويا هي تعبير عن الشعور بالأبديّة وملكوت الله.

نقرأ في نصٍّ ليتورجيٍّ قديمٍ ينقل لنا نبض الكنيسة الأولى ومشاعر مسيحي القرن الأوّل في زمن الرُّسل الملتهب بحرارة الإيمان وشهوة الملكوت، تلك الصلاة الإفخارستيّة:

لتأت النعمة

وليمض هذا العالم

أوصنّا لإله داود

لقد كان الهاجس الذي يُشكِّل الصلاة في تلك الحقبة هو ترقُّب النعمة التي ترفع الكنيسة إلى الملكوت من بعد زوال العالم؛ فالكنيسة الأولى كانت متمنطقة بالروح في تأهُّب ليل نهار لملاقاة الربّ على السحاب.

وفي إحدى التعبيرات الرائعة في سفر أيوب والتي تشير إلى كيفيّة لقاء الإنسان الأمين البار بالله، يقول أيوب إن هذا الإنسان:

يُعاينُ وجههُ بهُتافٍ

(أي ٣٣: ٢٦)

تلك الآية تُفسِّر مقطوعة هاندل عن المسيّا إذ أنّ الهتاف هو حالة المعاينة وهي النعمة التي ترقبها الكنيسة، كما أنّ النشيد هو لحن اللّقاء، إلاّ أنّ كلّ لقاءات الإنسان بالله يمكن أن نصنّفها تحت

عنوان: "العربون"، فهي لقاءات استباقيّة لما سنعاينه هناك حينما يكون اللّقاء وجهًا لوجه والهتاف لُغة الحوار الأبدي في المسيح.

قال المسيح لتلاميذه:

أنا أمْضي لأعدَّ لكم مكانًا،
وإن مضيتُ وأعددتُ لكُم مكانًا
آتي أيضًا وآخذكم إليَّ
حتَّى حيثُ أكونُ أنا تكونون أنتم أيضًا

(يو١٤: ٣)

يا لهذا الشعور أنّ الربّ يسوع صَعَدَ إلى الآب ليُهيِّئ مكانًا لاستقبالنا في الحياة الجديدة. هل يوجد في معتقدٍ ما مثل هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان حتى إنّ الله بذاته يُهيّئ مكانًا للإنسان ليهنأ فيه ويرتاح من أتعاب العالم ويكفكف دموع الأرض ويُضمِّد جراح الزمان؟ لا أعتقد.

لم يقل المسيح أنّه سيعد مكانًا جيّدًا لسكنى الأبرار ومن ثم يتركهم ينعمون فيه بعيدًا عنه؛ فمتعة الملكوت ليست أشياء، والملكوت في المسيحيّة قائم على حضور العريس الإلهي، يسوع المنتصر للبرّ بالقيامة من الموت، وسط شعبه، لأنّه هو النور الذي منه تنتثر رائحة الفرح في أرجاء الملكوت؛ « وَفِي وَسَطِ السَّبْعِ الْمَنَايِرِ شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ » (رؤ١: ١٣).

كانت كلمات المسيح البديعة في هذا الحديث تتحدّث عن حركة اتّحاد إذ قال: « آخذكم إليّ »، التعبير غنيٌّ للغاية في أصله اليوناني، إذ يشير إلى حركة نحو المسيح وتطلُّع بالكامل إليه، كما أنّ الابن في حالة تطلُّع نحو الآب. آخذكم إليّ تعني أجعل منكم خاصّتي تتوافقون مع فكري تتّحدون بمشيئتي لا تكونوا ملك ذواتكم فيما بعد، بل ملكي لكيما أحييكم إلى الأبد. لذا بقدر ما نقترب من المخلِّص وبقدر تطلُّعنا نحوه بكلّ ملكاتنا وقدراتنا ومشيئتنا بقدر امتلائنا ببهجة الملكوت المُعبَّر عنه في حضور واتّحاد المسيح بنا، لأنّ ملكوتنا هو الربّ يسوع وليس شيء آخر.

كتبها كبريانوس الشهيد أسقف قرطاج بكلماتٍ أخرى، في مقالته عن الصلاة الربّانيّة، قائلاً:

إنّ ملكوت الله هو المسيح نفسه
هذا المسيح الذي نشتهي كلّ يوم مجيئه
هو قيامتنا لأنّنا به نقوم
لذا يمكننا أن نعتبر أنّه ملكوت الله،

نقطة انطلاق كلّ المسيحيّة هي شخص (المسيح) وليست شيء (ملذات ومتع الجسد والنفس)، لذا فإنّ الملكوت في المسيحيّة شخصيٌّ وليس شيئيًّا. وهذا ليس بالغريب فإنّ الحياة الإنسانيّة السويّة تُفضّل الشخص عن الشيء؛ فمثلاً إن خُيــِرَت امرأة بين زوجها الذي تُحبّه ويُحبّها وبين قصرٍ منيفٍ وجنائنَ متّسعة وموائد عامرة، فالخيار سيؤول للشخص. تلك هي الفطرة الإنسانيّة السويّة؛ أنّ قيمة الشخص أهم من الشيء لذا من غير المنطقي أن يكون الملكوت هو تمتُّع بالشيء الذي هو أدنَى في قيمته من الشخص، أو التمتُّع بأشخاص لحساب اللّذة، وليس تمتّع في سياق وحدة أسمَى من اللّذة.

إن كان ملكوتنا هو يسوع ابن الله، ففي ملكوت يسوع نَسْبَح في بحر الحبّ الذي لا ينتهي ولا يعرف شطآن. قد يرى البعض أنّ هذا مدعاة للملل! ولكن بالعودة إلى الفطرة الإنسانيّة في الحكم على الأمور نجد أنّه إن كانت المحبّة بين المخطوبين حديثـًا تكون متأجّجة بل ومُرصَّعة بِنَهَمٍ في التعرُّف على الآخر في أوقات لا يريد الطرفان فيها أن تنقضي سويعاتها، فكم وكم المحبّة الإلهيّة على مائدة العريس السماوي تكون مشبعة للروح ترفعها فوق كلّ توقّعات الفرح مهما كان متعاظمًا. والتعرُّف على الآخر هنا (الله) لا ينتهي لأنّه لانهائي في شخصه لذا فالمعرفة ستكون ممتدة لا تتوّقف عند تعثُّرات الملل والضجر؛ فمعرفة الله مليئة بمفاجئات مبهجة في كلّ لحظة أبديّة.

حينما سأل الصدّوقيون، المسيح، عن الزواج في الحياة الأخرى، نظر إليهم بدهشة من ضيق أفقهم الإنساني الذي يريد أن يُصوِّر الحياة الجديدة في ملكوت الله وكأنّها امتداد للحياة الأرضيّة!! فما أشقاها حياة وما أفقره ملكوت! كانت كلماته الواضحة أنّه في السماء سيكون جمع المختارين كملائكة الله .. طاقات نورانيّة لامعة بالحياة في أجسادٍ مُمجّدة تلتف حول العرش الإلهي وتحيا التسبحة الخالدة التي ترفع القلب الجديد إلى حالة من النشوة الكيانيّة لا حدود للفرح والسلام فيها. تلك هي الحياة التي تستحق بعض العَنَاء ههنا على الأرض. تلك هي سماؤنا ..

إن كان ملكوت الله كممالك الناس فإنّنا أشقَى جميع الناس. إن كانت مملكة الله ستتيح لنا ما حُرِمنا منه من شهوات ههنا على الأرض فنحن أسرى للشهوة لم نتحرَّر منها بعد، والشهوة بحرٌ مياهه مالحة لا تروي ظمآنًا بل تلهب عطشه؛ فأين حريتنا المنشودة إذًا؟؟؟ لا وجود لها إذا كانت مثل تلك الحالة هي سماؤنا ...

ولعلّ من الأمور الجديرة بتوقُّفنا لبرهة أنّ كلمة ملكوت هي هي كلمة مملكة / مُلْك، فهي في اللّغة اليونانيّة (فاسيليا) وفي اللّغة العبريّة (مَمْلَخَه / مِلْخُوت)، وهذا يعني أنّ ملكوت الله في أبسط تعريفاته هو مُلْك إلهي لجمعٍ مختار أو بعبارة أخرى هو التفاف المخلَّصين حول ملكهم الذي أحبّوه وساروا وراءه طوال رحلتهم الأرضيّة فسكنوا معه إلى الأبد في بهجة اختيار الحياة، مضيئين كالشمس في ملكوت أبيهم الحقيقي، الذي هو النور الذي منه تشتعل كلّ فتائل البشريّة فتصير به نورًا بالكليّة.

في مؤلّفه عن الصلاة، والذي شرح فيه ـ سابقًا غيره ـ الصلاة الربانيّة، كتب ترتليان قائلاً:

’يا ربُّ عجّل في مجيء ملكوتك‘
ذاك هو تمنّي المسيحيّن،
وخزي غير المؤمنين،
وانتصار الملائكة.

حينما ندعو الآب في صلاتنا التي تسلّمناها من فم المسيح، نقول: « ليأت ملكوتك ». تلك هي الرغبة المُلحّة على المسيحي. لا يطلب المسيحي مُلْكًا لذاته أو لأقرانه أو لأتباعه .. إلخ، المسيحي لا يطلب سوى مُلْك المسيح وحده. وهذا يشير إلى أنّ طلبتنا التي تتوافق مع مشيئة الآب هي أن ندعوه ليأت ويبسط ملكه على القلوب، الأمر الذي لنا فيه دور ككنيسة لأنّنا فم المسيح المُعْلِن والمُخبِّر والشاهد عن ملكوت الله، كما أنّنا جسده الذي يُجسِّد حضور الملكوت بسلوكٍ ملكوتيٍّ سمائيٍّ بين جموع العالم.

أن نُفعِّل مسيحيّتنا في العالم هو تحقيق لملكوت الله على الأرض تمهيدًا لجذب العالم إلى الحضور الإلهي الممتد إلى الأبد في الملكوت الأبدي. لذا لا يمكن لمسيحي أن يناجي الآب طالبًا مجيء ملكوته إن لم يبدأ في تفعيل حضور الملكوت بخضوع الحياة للمسيح ليملك عليها. إن لم يملك المسيح علينا فكيف ندعوه ليملك على آخرين، وإن لم ندعوه ليملك، فنحن لا نُصلِّ بحسب مشيئة الآب والابن في الروح.

يكتب المُعلِّم أوريجانوس في مقالته عن الصلاة فيقول:

لا يمكن أن يتصالح ملكوت الخطيئة مع ملكوت الله
إن أردنا أن يملك الله علينا،
فلا نسمح للخطيئة أن تملك على جسدنا المائت
لا نتبع نداءات الخطيئة التي تجتذب نفسها

إلى أعمال اللّحم وإلى الأفعال الغريبة عن الله
لنُمت أعضاءنا اللّحميّة لتنتج ثمار الروح
والربّ سيتنزّه فينا كما في فردوسٍ روحيٍّ
ويملك وحده فينا مع مسيحه
عن يمين القدرة الروحانيّة التي نطلبها ..
إذًا يجب على ما هو فاسد فينا أن يعلن القداسة واللاّفساد
في الطهارة والنقاوة
وما هو مائت أن يتعرّى من الموت ويكشف خلود الآب
بهذا يملك الله فينا
ونملك نحن منذ الآن خيرات الولادة الجديدة والقيامة.

في دفاعه الأوّل يستنكر الشهيد يوستين (في القرن الثاني الميلادي) الخَلْطَ الذي تَعَمَّد البعض إقحامه في الدعوة المسيحيّة، إذ يقول: "عندما تسمعون أننا نتطلّع إلى ملكوتٍ، تندفعون دون فحصٍ إلى الاعتقاد بأننا نتحدّث عن مُلْكًا بشريًّا! بينما حديثنا عن ذاك [الملكوت] الذي هو مع الله، الأمر الذي يتّضح من اعترافات الإيمان التي يعلنها أولئك الذي وُجّهت إليهم التُّهَم أنّهم مسيحيّون!".

الملكوت مع الله هو التعبير عن معيّة لا تفترق بين الربّ يسوع ابن الله الحيّ أبد الأبدين، وأبناء النور الذين قبلوه ملكًا متوجًا على الحياة يختنها بروحه القدّوس على الدوام من شكل العالم المائت، بقدر خضوعهم للوصيّة بفرحٍ ومسرّة الرجاء، وهو ما يدوّنه لنا القديّس يوحنّا عن هؤلاء الذين لم يقبلوا صورة الوحش ولم يسجدوا له، فكان نتاج هذا الاختيار الحرّ أنّهم « مَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ » (رؤ٢٠: ٤).

لقد جلست فتاة في الشُّرْفَةِ بجانب والدتها وكانت السماء ساحرةً بألوانِ الغروب المنسحبة في رقّةٍ وهي تصبغ كلّ ما حولها بصُفْرةٍ أقرب إلى الإحمرار، وقالت لها:

أمّي، إن كان ظَهْرُ السماء بديعًا هكذا
فكم يكون وجهها؟؟

بالفعل إن كان الجمال الذي تطلّ علينا به السماء يحمل من السلام والسكون والنشوة والهدوء للنفس مثل تلك الحالة التي تُهدّئ من قلوبنا وتعلو بنا في عالمٍ من الخيال والحلم والسعادة، فكم وكم يكون الوجه الحقيقي للسماء الذي لم يستطِع أحدٌ، يومًا ما، أن يصفه لنا. فاللّغة البشريّة أعجز من

وصف الجمال السمائي الذي سيظل شوقًا في قلوب مُحبِّي الربّ يسوع إلى أن يتركوا أشباه الجمال إلى الجمال الحقيقي.

عن السماء وما سنمارسه في تلك الحضرة الفائقة التصوُّر يكتب القديس أغسطينوس فيقول:

[هناك] سوف نستريح ونرى
سوف نرى ونحبّ
سوف نحبّ ونصلّي
في تلك النهاية التي لا تعرف النهاية

ولعلّ من الأمور التي يجب أن تستوقفنا، أنّ مجرّد الحديث عن الربّ يسوع ونطق اسمه يثير عذوبة في النفس وهو ما تُجسِّده كلمات التسبيح في فجر الثلاثاء من كلّ أسبوعٍ إذ ترنّم الكنيسة:

إذا نطقوا به [اسم الربّ يسوع] تستنير عقولهم
وترتفع إلى العلاء قلوبهم

قياسًا إلى تلك الحالة من الاستنارة والتسامي الذهني والقلبي عن محسوسات هذا الدهر، بالنطق المتشوِّق لاسم الربّ يسوع، فإنّ تلك الراحة التي ستمتلكنا حينما نعاينه وجهًا لوجه، « إذ سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ » (١يو٣: ٢) تجعلنا نذوب حُبًّا في طُهْرِ ضيائه المنبعث من وجهه المشرق بالحبّ بل والفيّاض بالاحتواء والترحيب في مملكة الحبّ.

لذا فإنّ مَنْ لم يختبر لحظات الصلاة والتسبيح التي تعانق فيها الروح الإنسانيّة، الربَّ يسوع، وتشعر بحالة من التسامي وانسكاب النور على الذهن والقلب، لا يمكنه أن يفهم قيمة الأبديّة بل قد يراها مُملّة بالنسبة له!!

فلا تستطيع أن تعتب على الضرير الذي لم يرى جمال الزهور وألوان الطبيعة وزرقة السماء وسِحْر الغروب وإبداع صفحة البحر المنعكس عليها أولى خيوط الشروق .. إلخ. قد ينعتك هذا الضرير بالمبالغة والجنون والتخيُّل المريض فقط لأنّه لم يرى! وكم من بشرٍ بيننا اليوم لم يختبروا الأبديّة في قلوبهم فلم يدركوا قيمتها الحقيقيّة، وهو ما يُفسِّر لنا السلوك اللاّمبالي بالسماء وملكوت الله.

عبَّرت عن تلك الحقيقة، كاترينا السينائيّة، قائلةً: "إنّ كلّ الطريق إلى السماء هو سماءٌ". فالسماء هي حضور الله، بل إنّ كلّ قلبٍ عاش بالحبِّ هو سماءٌ بتعبير قداسة البابا شنوده الثالث.

إنّ الربَّ يسوع لم يَكْتَف بحديثه إلى التلاميذ بأنه سيذهب ليُعدَّ مكانًا، ولكنّه تضرّع للآب حتى يكون معه كلّ مَنْ تتلمذ عليه وسار على دربه وأحبّ طرقه ونفَّذ وصاياه وأكرم اسمه وأعلن عن ملكوته ههنا على الأرض.

قال المسيح بشوق الحبّ:

أيُّها الآبُ
أريدُ أنَّ هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي
حيث أكون أنا

(يو١٧: ٢٤)

هل توجد صلاة أروع من تلك، تحملنا إلى فوق، حيث المسيح عن يمين العظمة في الأعالي. تلك الصلاة تشعرنا بالفعل بأنّ كلَّ ما في المسيحيّة هو حميميّةٌ وحبٌّ وأشواقٌ وعنايةٌ من الإله واحتضانٌ وعناقٌ وغفرانٌ بل إنّ التقويم والتهذيب لأحبّائه لا يكون خارج الحضن الإلهي.

لقد عرّف القديس بولس الملكوت تعريفات كثيرة منها أنّه ملكوت ابن محبّته (كو١: ١٣) وهو ما يشير إلى أنّ النقطة الارتكازيّة في ملوكيّة ابن الله هي محبّته للآب لأنّ من الحبّ ينطلق فهمنا للعلاقات بين الثالوث ومن الحبّ نستوعب الفداء العجيب وبالحبّ نتحرّك بعيدًا عن الشرّ القابع في أحشاء العالم الرافض لله. وبتعبير يعقوب السروجي: "الله يريد أن يرى الحبَّ أينما حلّ". ومن ثمّ فمن يحبّ الابن يحبّ الآب ويتأهّل لملكوتٍ كلّ ما فيه مغزول بأقمشة الحبّ النورانيّة التي لا تبلى.

لهذا أنا مسيحي لأنّ لي إله يعدّ لي مكانًا ليس على شاكلة هذا العالم .. مكانًا، الربّ يسوع هو مركزه ونوره الوضّاء .. ينتظرني بلهفة كأبٍ يترقب عودة ابنه سالمًا إلى منزله .. وهناك يبدأ العناق الأبدي الذي لا ينفصم لحظة واحدة ولا طرفة عين .. هناك الحبّ قانون والجمال منطق والتسبيح حياة والفرح دائم ..

أي شيء أريد أكثر من هذا؟؟

لهذا أنا مسيحي ...

> أنا جائع إليك يا ربّي يسوع
> أشبعني من دسم مائدتك السمائيّة

ولو كتذوُّق مسبق لما تعدّه لي
لا تدعني أغادر هذا العالم قبل أن أتحسّس ملكوتك حيًّا في قلبي
فإن لم يصر قلبي سماءً
لن أعاين السماء
وإن لم يتحوّل قلبي إلى عرشٍ ملكيٍّ
لن أدخل إلى بهوك الملكي
وإن لم تنفتح بصيرتي الزمنيّة
لن أعاين ضياءك الأبدي
ثبّت طلبتي في ملكوتك
في يقين أن كلّ شيٍّ آخر هو موضع عنايتك الأبويّة
أمين.

أنا مسيحي لأني تلامست مع حضور الله في حياتي

في الكثير من الأحيان نقابل العديد من المسيحيين الذين يعرفون الكثير عن الحياة المسيحيّة وعن الكنيسة وتاريخها وطقوسها وإيمانيّاتها .. إلخ، ولكن هل هذا هو السبب في كونهم مسيحيين؟!!

دعني أقول لك: المعرفة لا تُصيِّر الإنسان مسيحيًّا؛ فهناك الكثير من المسيحيين "يموتون عطشًا بجوار النافورة!" بتعبير ريتشارد ويلبر.

عرفتُ أحد الذين آمنوا بالمسيح ورأيت أنّ له علمًا كبيرًا بالحياة المسيحيّة والكتاب المقدّس بشكلٍ يفوق معظم المسيحيين. سألته هل إيمانه كان نتيجة تبحُّره في النصوص الكتابيّة ومن ثمّ اقتناعه بما جاء في الكتاب المقدّس؟؟ أجابني بقوّة ووضوح: لقد قرأت الكتاب المقدّس كثيرًا ولكن الذي جعلني أؤمن هو شعور بحضور إلهي فائق وأنا أقرأ الكلمات. وأضاف، ذات يوم ظهر لي المسيح في رؤيا ونظر إليّ بعينيه المليئة بالحنان وقال لي كلمة واحدة غيّرت كلّ حياتي، قال لي: "أحبّك". بعدها انتشر خبر إيماني الجديد وتجمّع حولي الكثيرون وظلّوا يضربونني ضربًا مبرِّحًا، وللعجب كان قلبي يمتلأ بالغفران لهم على عكس طبيعتي الحادّة السابقة. إجمالاً ما جعلني أؤمن بالمسيح أنّي اختبرت حضوره في حياتي بشكلٍ لم أعرفه من قبل وهذا الحضور يتزايد بشكلٍ يجعلني أُقرُّ أنني لن أنتهي يومًا من التمتُّع بهذا الحضور الإلهي.

في المسيحيّة نتعرّف على وجه الله، ولعّل كلمة "وجه" التي نجدها في العديد من النصوص الكتابيّة هي كلمة *prosopon* في اللُّغةِ اليونانيّة، والتي قد تُتَرْجَم إلى "حضور" وقد تعني أيضًا "شخص"، وفي العبريّة أيضًا فإنّ كلمة "وجه" *panîm* تُعبِّر عن الحضور. لذا فإنّ معاينة الله وتذوّق حضوره هو بتعبير آخر التمتُّع بإشراقة وجهه الإلهي على نفس الإنسان الداخليّة.

ينادي داود النبي في أنشودته للربّ قائلاً: « ارْفَع عَلَيْنَا نُورَ وَجْهِكَ يَا رَبُّ » (مز٤: ٦) تلك الآية تعني اغمرنا بحضورك المنير يا ربّ، فنور الوجه (*to fos to prosopo*) هو الحضور الإلهي المنير للنفس الإنسانيّة والذي يهبها البصيرة لتبصر أشياء ليست من هذا العالم حتى تستطيع أن تحكم بمقياس أبدي على كلّ ما هو زماني وأرضي. وفي مزمور (١٣: ١) نجد أنّ احتجاب الوجه؛ « إِلَى مَتَى تَحْجُبُ وَجْهَكَ (*to prosopo soo*) عَنِّي؟ » هو عدم الشعور بالحضور الإلهي. والحضور الإلهي حينما يتجلَّى، في المقابل، فإنّه يملأ الإنسان بشبع السرور؛ «أَمَامَك (في محضرك *to prosopo soo*) شِبَعُ سُرُورٍ» (مز١٦: ١١). ولكن كيف نجتذب الحضور الإلهي الذي لا يمكنه أن يحضر بينما الخطيئة مالكة ومُتملِّكة النفس الإنسانيّة؟ هذا السؤال يجيبه المُرنّم قائلاً: « أَمَّا أَنَا فَبِالْبِرِّ أَنْظُرُ وَجْهَكَ (أعاين حضورك *to prosopo soo*) » (مز١٧: ١٥). فبدون التمسُّك ببرّ المسيح بالحفاظ على الوصيّة والعيش بمقتضَى الإنجيل واعتناق الحبّ الباذل كعقيدة حياتيّة متجدّدة كلّ يومٍ، في انتظار مليء بالشوق نحو الملكوت، فإنّ الحضور الإلهي / الوجه الإلهي لا يمكن أن يُعاين ولا أن يُختبر.

والحضور الإلهي هو ما يجعل الحياة مثمرة وفرحة ومليئة بالمعنى وثريّة في كلّ لحظة من لحظاتها. هذا الإدراك هو ما دفع القديس كليمندس السكندري ليكتب في كتابه "المربّي"، فيقول:

أينما اتّجه وجه الله
يكون السلام والفرح

ولعلّ من الكتب البديعة التي ترجمها لنا أبونا بيشوي كامل، كتاب "سائح روسي على دروب الربّ". فيه نقرأ عن اختبار ذاك الشخص الروسي الفقير عن حضور الله عقب ممارسته لصلاة يسوع، وما يمتلك النفس من أحاسيس ومشاعر لذلك الحضور البهي، إذ يقول:

كنت أشعر أحيانًا وكأنّ قلبي يفور بغليانٍ
وشعور بالخفّة والانعتاق من كلّ قيد،
وشعور بالفرح الغامر إلى حدٍّ أشعر معه بأني صرت رجلاً آخر ،
أو كأني في نشوة.

كنت أحس بمحبّة ملتهبة من نحو يسوع المسيح،
ومن نحو الخليقة قاطبة.
كانت دموعي مرّات أُخرى تسيل من تلقاء ذاتها،
عرفانًا بجميل الربّ،
الذي تحنّن عليَّ أنا الغارق في لجج الخطايا.
كما كان ذهني المحدود يستنير أحيانًا،
فأفهم بوضوح ما لم يكن لي حتّى مُجرَّد تصوُّره قبلاً.
وفي بعض الأحيان يَدبُّ الدفء المستطاب من قلبي
إلى كلّ كياني،
فأشعر والفرح يغمرني بحضور الربّ،
كما كان يخالجني في بعض الأوقات
فرحٌ شديدٌ عميقٌ لذكرى اسم يسوع المسيح
ممّا فهمت معه ما تعنيه كلماته:
'إنّ ملكوت الله في داخلكم'.

من تلك الكلمات السابقة يمكننا أن نقف على العلامات الأساسيّة لحضور الله والتي تتمثّل في العشر نقاط التالية:

١ـ حالة من السلام الداخلي.
٢ـ حالة من الغفران لكلّ من أساء إليك وكأنك تريد أن تحتضنه وتُقبِّله.
٣ـ حالة من السكينة الداخليّة وصفاء النفس وتوقُّف التساؤلات التي تطرق الرأس ليل نهار.
٤ـ حالة من التجرُّد من كلّ شيءٍ والتسامي فوق كلّ شيءٍ والشعور بأنّ القيمة الحقيقيّة تتجاوز العالم المادّي.
٥ـ حالة من الشعور بالضآلة أمام عظمة الله والاتّضاع أمام مجده مع تسبيحٍ مستمرٍّ لاسمه القدّوس الذي قَبِـلَ أن يسكب نعمة حضوره على خاطئ مثلي.
٦ـ الشعور بلهبٍ رقيقٍ يَمْلُك على القلب ويُطهِّره ويغسله، يجعل من الإنسان خفيفًا كأنّه طيرٌ سابحٌ بلا عوائق من المادّة.
٧ـ الشعور بحبّ الربّ يسوع يمتلك الروح، إذ تبصره روح الإنسان رقيقًا حانيًّا محبًّا وديعًا عطوفًا للغاية.

٨ ـ رؤية الآخرين بعينٍ لا ترصد سوى صورة الله الحسنة دون الأخطاء.

٩ـ طلب متواتر للحياة الأبديّة والسكنَى مع الربِّ يسوع إلى الأبد.

١٠ـ الخضوع الواثق ليدِّ الفخاري الأمهر لصنع إناء للكرامة وإن كان من طينٍ وماءٍ.

إنّ المسيحي الحقيقي هو مَنْ تلامس مع هذا الإله في حياته، الإله القريب إليه، أقرب من النَفَس الذي يتنسّمه. لقد كتب عنه القديس غريغوريوس النزينزي بأشواقٍ متزايدةٍ هي من نتاج اختبارٍ كثيفٍ للحضور الإلهي:

المسيح هو قوّتي ..

هو نسمتي ..

هو المكافأة الهائلة لركضي ..

هذا الإله الحاضر ليسند إيمانك حينما يخور، ويُجدِّد قواك حينما تُسْتَنفذ. إنّه واقفٌ ليُكلِّل العابرين تجارب العالم وهو يفيض عليهم من ندى النعمة ليستطيعوا أن يعبروا. إنــه يحتضن كلَّ مَنْ يتألّم من أجله، ويُجْرَح من أجله، ويُهان من أجله، ويُرْفَض من أجله، وكأنّ عناقه يقول: سأكون لك كلّ شيءٍ وأغنيك بما لا يستطيع العالم أن يغنيك به على الإطلاق.

حضور الربّ يسوع هو الذي يجعل من الإيمان المسيحي حيًّا. فالمسيح لم يأت بمجموعة من التعاليم ليعطيها لأتباعه ويقول لهم عليكم اتّباع هذه التعاليم وتنفيذها حتى يمكنكم الدخول إلى الملكوت. الربّ يسوع أتَى بحياته ليعطيها لكلِّ مَنْ يقبلها. تلك التي بها، وبها فقط، يمكن تطبيق مبادئ الحياة المسيحيّة بفرح وسهولة ويُسْر. لذا إن لم تستشعر الربّ يسوع حاضرًا في حياتك فإنّ المسيرة ستكون شاقّة بالفعل والنَيْر لن يكون هيّنًا بأي حالٍ من الأحوال.

في إحدى السجون التي سُجن فيها أحد الكهنة لمدّة تقرب من ١٨ عام في سجنٍ انفرادي، من أجل إيمانه، كان السبب الوحيد لبقائه على قيد الحياة، والحفاظ على صحّته العقليّة والنفسيّة من الانهيار هو: "حضور المسيح". فقد كان يستشعر بحضور المسيح يملأ السجن الضيّق فيصيره مُتّسعًا وكأنه قصرٌ. كان حضور الربّ يسوع يملأ قلبه بالدفء فلا يئنّ من قسوة البرد. كان حضوره يخاطبه فلا يشعر بوحدة، كان يعطيه سلامًا فلا يحس بمرارة. كان حضور الربّ يسوع يُفْرِحه فلا يشعر بالكآبة. حضور الربّ ملأ قلبه بالغفران فلم تتملّكه الكراهية. كان الحضور يجعله يتضرّع من أجل الكنيسة وكلّ الذين في ضيقة بل ويتضرّع من أجل ساجنيه فيشعر أنّه عضوًا حيًّا في جسد المسيح. حضور الربّ ملأ

قلبه بالأبديّة من هنا على الأرض. هل يمكن لمثل هذا الذي اختبر حضور المسيح أن ينكره يومًا أو يشك فيه يومًا أو يتذمَّر عليه يومًا مهما انزوى الجسد وتهالك من فرط الألم والضيقة؟! لا أعتقد.

مَنْ تلامس مع حضور المسيح صار له إيمانٌ ترتعد أمامه قوّات الجحيم ولا تقوى عليه.

في استهلاليّة رسالة استشهاد القديس بوليكاربوس التي أرسلتها كنيسة الله التي في أزمير، نجد حديثًا عن الشهداء الأبطال الذين واجهوا الموت العاتي برباطة جأشٍ حيَّرت أعداءَهم، إذ نقرأ عنهم:

كان انتباههم لصوت النعمة الإلهيّة
يُحقِّر في أعينهم كلّ عذابات الدنيا.

الانتباه لصوت النعمة والحضور الإلهي ومَحْضَر السيّد واستعلان المسيح جعل من الإيمان قوّة غير قابلة للانهزام.

وحينما طالبت السلطات بوليكاربس الشيخ أن يشتم المسيح ليَرْحَم شيخوخته وليفلت من العقاب، كان ردّه المعبّر عن نفس تلامست مع المسيح في أعماقها الداخليّة، قائلاً:

ستٌّ وثمانون سنة وأنا أخدم المسيح فلم يسيء إليَّ بشيءٍ
فلماذا أشتم إلهي ومخلِّصي.

في ثلاثينيّات القرن الماضي وبينما كانت القوى الإلحاديّة تعصف بالكتلة الشرقيّة من الكرة الأرضيّة تعرّض المسيحيّون في الاتحاد السوفيتّي السابق والصين إلى أشدّ العذابات وطأة، إلاّ أنّ الإيمان لم ينثنِ بل سطّر لنا قصص ملحميّة عن وجوهٍ بَدَتْ وكأنّها مُرْسَلَةٌ من عصور الكنيسة الأولى بنفس لهب الإيمان الأوّل ونضارته. وتلك كلمات إحدى السيّدات المسيحيّات الصينيّات التي تشهد لقوّة وبأس يُخجِّل إيماننا القشريّ الهشّ، إذ تقول: "أُحرق منزلي مرتان، ولم يُتْرك فيه شيءُ، وقُتِلَ أربعة من ستّة هم جملة أفراد عائلتي؛ منهم أخي الذي وُسِمَ بمكواة ملتهبة، وزوجة ابني التي أُطْلِقَ عليها النار أمام ناظريّ، كما مات حفيدي من جرّاء أحد الانفجارات. ولكنّي لن أترك ربّي يسوع المسيح".

قد يكون لك كلّ العلم المسيحي ولكن ليس لك اختبارُ مسيحيٌّ يدعم إيمانك، لم تستشعر به يأتيك ليلهب قلبك في الصلاة ويهبك قوّة في جسده ودمه المقدّمين من أجل حياتك، ويرتفع بك في أوقات التسبيح فوق العالم الحاضر، ويدفء قلبك حينما تحنو على فقير أو مسكين، ويُضمِّد جُرحك إن سنّ الآخرون ألسنتهم عليك، ويصيّرك صخرة لا تلين أمام فوران الاضطهادات والضيقات، فإيمانك يحتاج لحجر زاوية يرتكن عليه .. إيمانك ببساطة يحتاج لاعادة اكتشاف الربّ يسوع.

ولكن قد تتساءل؛ كيف أختبر الحضور الإلهي؟؟

بالقطع في الحياة المسيحيّة لا توجد تعليمات ممنهجة لآداء بعض الممارسات كوسيلة لاستجلاب النعمة والتمتّع بحضور الله، وذلك لأنّ النقطة المفصليّة في إيماننا هي صدق العلاقة، إلاّ أن هناك بعض العلامات لضبط العلاقة على الطريق الصحيح، منها:

١ـ أن يعود الربّ يسوع مركزًا لحياتك وليس على الهامش بعد الدراسة والعمل والأصدقاء .. إلخ، وهو ما يمكن تسميته تصحيح المسار، وبدونه لن يكون هناك قيمة لما يليه من خطوات.

٢ـ أن يكون لك حديث معه بشكل يومي من خلال فترات صلاة مُحدَّدة بمثابة الوجبة الأساسيّة للامتلاء (صلاة المزامير)، وصلاة مستمرة طوال اليوم من خلال حوار مفتوح بينك وبين السماء، ويمكن التدرُّب فيها على صلاة يسوع؛ "يا ربّي يسوع المسيح ابن الله الحيّ ارحمني أنا الخاطئ". ويمكنك تبديل الصلاة مع الاحتفاظ بالنداء لاسم الربِّ يسوع، إذ يمكنك أن تقول مثلاً: يا ربي يسوع امنحني قوّة الحقّ للشهادة لاسمك .. هبني أن أتبعك طوال اليوم .. أَظْهِر أمامي طريقك .. نجني من الأهواء الداخليّة .. حرّرني من قيودي .. فرّحني بحضورك المُغيِّر .. اغسل نفسي بقدومك إليَّ .. امسك يدي واهدني إلى طريق البرّ .. لا تسمح للشيطان بأن يمتلك روحي ... إلخ. فصلاة المزامير تهدف إلى ضبط الإيقاع الروحي والحفاظ على توازنه، بينما الصلاة كحوار مستمر تعلن عن وجود علاقة حقيقيّة ممتدة طوال الحياة وليس أوقات الصلوات فقط.

٣ـ قراءة الكتاب المُقدَّس بذهن خاضع ومنفتح ومُسْتَقْبِل، حتى يكون لك فكر المسيح وليس فكرٌ تعتقد أنه فكر المسيح.

٤ـ الانضمام لجماعة يكون هدفها ملكوت الله تشترك معها في الخدمات والاجتماعات.

٥ـ نشر الحبّ في عالمك من خلال أعمال الرحمة والغفران للكّل على قدر طاقتك وبالأخصّ لمَنْ يُسيء إليك، وكذلك البذل من وقتك وجهدك ومالك من أجل المسيح.

٦ـ مراقبة حالتك الداخليّة لكي تبقَى دائمًا مرتديًا ثوب الاتّضاع الذي بدونه لن يمكنك أن تشعر بحضوره؛ فالقلب المُنْكَسِر بالاتضاع لا يُرذله ولا يرفضه الله مهما كانت حالته، تذكَّر مَثَل العشار والفرّيسي.

٧ـ التثبُّت فيه من خلال المائدة الإفخارستيّة بقدر الإمكان والظروف ولكن ليس كما لقومٍ عادّةٍ بل بخضوع الشوق لحضوره على المذبح وبالتوقير اللاّئق بالوجود في حضرة المسيح والجمع السمائي.

٨ ـ تطهير ثوبك بالتوبة بقدر الإمكان معترفًا بخطيئتك في حضور الأب الروحي، وهذا الأمر لا تصنعه بمفهوم إراحة الضمير فقط ولكن لتجديد الشركة في جسد المسيح كعضوٍ حيٍّ فاعلٍ.

٩ـ الهروب من تقييم الآخرين وإدانتهم مهما كان المُبرِّر، وعدم التحزُّب لأشخاص بل اتّباع الحقّ بوداعة المسيح ولُطفه.

لذا فحينما تمارس الحياة المسيحيّة في عمقها وتسير على الطريق الإلهي مستندًا على رجاء حيّ نابت من خبرة الحضور الإلهي الذي لا مثيل له، يمكنك وقتها أن تقول وأنت في ملء اليقين .. لهذا أنا مسيحي ..

أيّها الروح الإلهي الحاضر في كلّ مكان
لتقدِّس من البشر آنية مُهيّئة لحضور السيّد
هلمّ وقدّس آنيتي الملوّثة
طهّرها بلمسات النعمة الجاذبة إلى بؤرة الضياء الأبدي
جدّد نداء التبعيّة على مسامعها
حلّ فيها لتختبر يقين الحضور الإلهي
ولا تعود تتشكّك في قربك
واملأها سلامًا ليس من هذا العالم
لتسكبه في آنية هذا العالم
ليتمجّد اسم الربّ يسوع في كلّ حينٍ
معك والآب السماوي ...
أمين.

أنا مسيحي لأني اختبرت قوّة الكلمة

كتب أحدهم قائلاً:

لو سألتموني لماذا أنا مسيحي،
لأجبتكم على الفور
لأنّي اخترت الإنجيل مربيًّا لحريّتي.

كلمة الله حيّة وفاعلة وأكثر حدّة من كلّ سيفٍ ذي حدّين، كما كتب القديس بولس، هذا يعني أنّه عند قراءتك لكلمة الله طالبًا التغيُّر وأنت تشعر باحتياج حقيقي ليتدخّل الله في حياتك، فإنّ الروح القدس يكون حاضرًا في تلك الجلسة مع الكلمة، ليرشدك ويُعلِّمك وينير لك ما تراه غامضًا من المعاني والعبارات والمفاهيم بل ويشير إلى مناطق لم تدركها في أعماق قلبك قد تختبئ فيها الخطيئة أو الشهوة أو الأهواء الأثيمة.

حينما تختبر كلمة الله تدرك وقتها أنّ الكتاب المقدَّس ليس كأي كتابٍ يمكن قراءته في وقت الفراغ أو كما نقرأ أي مؤلّفٍ آخر للحصول على معلومات. الكتاب المقدَّس ليس كذلك. إنّه كلمة محمّلة بالقوّة، تحمل لك الحياة، لا المعلومة.

ولعلّ من القصص التي وردت إلينا من الأدب الرهباني المُبكِّر تلك التي تتحدّث عن الراهب الذي جالس أبيه الروحي فقرأ له إحدى الوصايا قائلاً له حينما تتقنها تعال فأطلعك على نصوصٍ ووصايا أخرى. وبعد مرور ستّة أشهر، قلق الأب الروحي على تلميذه فَهَمَّ بالذهاب إليه ليستطلع حاله. وحالما دخل إليه ألقَى عليه بالتحيّة الرهبانيّة ووقفا ليصليّا معًا كعادة أهل الإسقيط. وبعد انتهاء الصلاة ابتدره قائلاً: ما لك لم تأتني منذ فترة طويلة وهو الأمر الذي قد يسبب لك بعض المخاطر في مسيرتك الروحيّة؟ فما كان من تلميذه إلاّ أن ذكّره بكلماته حينما قرأ عليّه تلك الوصيّة الكتابيّة بأن عليه اتقانها لينتقل إلى غيرها، مستطردًا أنّه مازال يسعَى مثابرًا في تطبيق الوصيّة ولم يتقنها بعد. ففرح الأب الروحي بالوعي الذي استقر في قلب تلميذه من جهة النصّ الكتابي أنّه للتطبيق. وصلّى من أجله تاركًا إياه وهو مطمئنٌ أنّ الروح رفيقه على الدرب لأنّه يسعى للحياة الأبديّة والعيش بحسب الإنجيل.

لذا فكلّما كان الإنسان المسيحي حيًّا بالروح كلّما تحوّل إنجيله من كمٍّ معلوماتي إلى كمٍّ خبرات حيّة تعلن ملكوت الله في قلب الإنسان بل وفي قلب الطبيعة عينها والوجود ذاته. فالكتاب المقدَّس مُفسَّر من قِبَل الطبيعة نفسها؛ فلحظات تأمُّل في الطبيعة تستحضر الكثير من المعاني والمشاهد

الكتابيّة وتجعلها واضحة كما لنورٍ يسطع وسط ليلة ظلماء. ولعلّ كلمات القديس غريغوريوس النزينزي التي كتبها عقب جلسة أمام صفحة البحر والتي استحضرت معنىً للحياة مرفقة بآيةٍ كتابيّة، تعلن تلك الحقيقة، إذ يكتب:

"اعتدُّت في وقت الغروب أن أذهب للتمشية وحدي على طول شاطئ البحر. هذا ما كنت أفعله دائمًا عندما أحتاج إلى راحةٍ وأُخْرِج عقلي من مشاكلي. بل حتى وتر القوس لا يستطيع أن يبقَى مشدودًا إذا كان يتمّ شدّه بشدّةٍ بصفة مستديمة. يجب أن يُحَلَّ قليلاً من أسنانه قبل أن يتم شدّه مرةً أخرى، حتى لا يصير بلا فائدة لرامي السهام، وبلا منفعة في ساعة الحاجة. لذلك كنت أتمشَّى، وبينما كانت أقدامي تنقلني على طول الشاطِئ، أبقيت عيوني مثبّتة على البحر، لم أجد بهجةً فيه، إلاّ أنه في الأوقات الأخرى عندما كان يتحوّل سطحه الهادئ إلى أحمرٍ غامقٍ، ويرتطم بالشاطِئ في مُزاجٍ حلوٍ لطيفٍ، يكون مبهجاً جداً.
في هذا الوقت خاصةً، أبتهج بإضافة كلمات الكتاب المُقدَّس، « هاج البحرُ من ريحٍ عظيمةٍ تَهبَ » (يو ٦: ١٨) وكما يحدث عادة في مثل هذا العواصف، بدأت الأمواج بالارتفاع في عمق البحر، وبعد وصولها إلى الذروة بشكلٍ تدريجيٍّ تموّجت على الشاطِئ وماتت. بينما كانت أمواجٌ أخرى تتحطَّم على الصخور القريبة ثم تنسحب للخلف هاربة، وتتبعثر في رغوةٍ ورذاذٍ لطيفٍ.
على تلك البقعة، كان الحصى والنباتات البحريّة والأصداف وأنواع المحار الصغيرة تنزاح من مكانها وتندفع بعيدًا، والبعض منها كانت تقذفه الأمواج إلى البحر كلّما انحسرت راجعةً. أمّا الصخور فقد بقيت ثابتة غير متزعزعة كما وأنه ليس هناك أي شيء يزعزعها، باستثناء الأمواج التي تصطدم بها.
بكل وضوح، كان لي في هذا المشهد شيءٌ ذو أهميّة وقيمة كبيرة. ولكوني من النوع الذي يُحاول أن يجد رسالة شخصيّة في كلّ شيءٍ يقابلني، خاصّة عندما تقع بعض الأحداث تُخضخض عقلي، كما كان هو الحال في هذا اليوم، لم أعبر على هذا المنظر بشكلٍ عرضيٍّ. ما رأيته كان إعلاناً وإلهاماً لي."

إنّنا في هذا العصر نعاني من خطرٍ لم يكن مُحْدِقًا بمن سبقونا في الأجيال المسيحيّة الأولى، ألا وهو اتقان الإنجيل معلوماتيًّا ووعظيًّا في الوقت الذي تتّسع المسافة بين ما ننادي به كتابيًّا وبين ما نحياه من الوصيّة.

تلك الخطورة لم تكن ذات ثقلٍ في حياة الكنيسة عبر العصور، لأنّ الطباعة لم تكن لتوفّر نسخًا من النصّ الكتابي في كلّ بيت، فكان الاتّجاه الذي يفرضه الواقع هو الارتكاز حول التطبيق أكثر من شموليّة المعرفة الكتابيّة واتّساعها، اللّهم إلاّ من الآباء الذين دأبوا على مطالعة المخطوطات الكتابيّة في لغاتها الأصليّة وانتقلت إلينا عظاتهم كشهادة عن معرفة عميقة بالنصّ الكتابي ولكنّها بأيّ حالٍ لم تكن متّسعة النطاق لنطلق عليها شعبيّة بل كانت معارف قاصرة على الذين تكرّسوا للعلم المسيحي

من الرهبان والكهنة والأساقفة أو مرتادي المدارس اللاّهوتيّة التي كانت في الإسكندريّة وأثينا وأنطاكيه وروما، على وجه الخصوص. هذا الأمر كان نتاج طبيعة عصر وواقع زمان لا دخل للكنيسة فيه. بل في المقابل، سعت الكنيسة لنشر رسالة الإنجيل من خلال تبنّي قراءات كنسيّة طوال السنة لتشمل أوسع رقعة من النصّ الكتابي وذلك في نسيج اللّيتورجيا المسيحيّة وبذلك أمكنها أن تنقل الإنجيل مسموعًا ومشروحًا من الآباء وذلك في جوّ من الصلاة والعبادة لتعوِّض عدم إمكانيّة اقتناء نسخ خاصّة من قبل عامّة الشعب الأمر الذي يستلزم قدر غير قليل من المال.

كذلك لم يكن التعليم مجّانيًّا ومتاحًا للجميع كما هو في عصرنا الحالي، لذا فقد كان المتعلّمون قلّة من المجتمع وكان الباقون ينصرفون إلى لقمة العيش. ولعلّ هذا الأمر يلقي بالضوء على الدور الذي لعبته مدرسة الإسكندريّة القديمة في ثوبها المسيحي بدءًا بأثيناغورس وبنتينوس السكندريين، فقد صاغوا منهاجًا دراسيًّا تعليميًّا تم الصعود فيه من التعليم الأساسي والطبيعي إلى الفلسفي والفكري إلى اللاهوتي والروحي ولعلّ ذلك قد ساعد بشكلٍ أو آخر في اتسّاع الرقعة المتعلّمة وخاصّة ممّن لم يتسن لهم حيازة ثروة تؤهّلهم لمثل ذاك العلم. على أي الأحوال تبقى الثقافة القديمة في مجملها ثقافة سمعيّة لا ثقافة قراءة واضطلاع.

لقد كتب ويليام هاريس، البروفيسور بجامعة كولومبيا، في دراسة له عن نِسَب مَنْ يُجيدون القراءة والكتابة في المجتمعات القديمة، أنّه في أفضل الأوقات والأماكن؛ أثينا، على سبيل المثال، في أوّج الفترة الكلاسيكيّة في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت مُعدّلات القراءة والكتابة نادرًا ما تتعدَّى نسبة ١٠ ـ ١٥ في المائة من السكان.

إنّ النقلة من ثقافة سماعيّة ليتورجيّة للنصّ الكتابي إلى ثقافة قراءة شخصيّة للنصّ الكتابي نتج عنها اتّساع في محيط المعرفة الكتابيّة والمعلوماتيّة الكتابيّة ولكن يجدر القول بأنّها أدت في الوقت نفسه، في بعض الأحيان، لاستبدال مشقّة التطبيق الحياتي، بالمعرفة النظريّة كتعبير عن مسيحي له حضور في الكنيسة بشكلٍ أو آخر.

وحتى الآن لم نَسْتَطِع، في الكثير من الأحيان، أن نُنَظِّم القراءة الشخصيّة لترتكز على الفعل والتطبيق لا على المعلومة المجرّدة من الغاية المسيحيّة العظمَى، الأمر الذي يضع على كاهلنا بثقل ضرورة تقديم كتابي يتمركز حول الاتحاد بالمسيح كبديل عن تعليم كتابي منتشر يتمركز حول المعرفة المسيحيّة. وهنا يجدر بنا أن نتوقّف عند أنواع قراءات مختلفة للنصّ الكتابي، منها:

١ـ القراءة الحياتيّة بروح الصلاة وهي القراءة الأساسيّة والتي لا بديل عنها للنمو المسيحي وفيها تنسكب النفس أمام الكلمة الإلهيّة لتنال من الربّ القوّة للتغيير الذي تطلبه بقدر معرفتها بدعوتها والتي تظهر في نمط حياة الربّ يسوع، والمعلنة في العهد الجديد، والمخبّأة في سرٍّ، وسط نبوّات العهد القديم. إلاّ أنّ تلك القراءة إن لم تصر موضع صلاة واجتهاد للتطبيق في الحياة تصبح ثقلاً على القارئ مع مُضي الوقت ممّا يجعله ينسحب إلى نوعٍ آخر من القراءة كبديل لا كمُكمِّل.

٢ـ القراءة لفهم كلمة الله إجمالاً من خلال قراءة كمٍّ كبيرٍ من الأصحاحات والأسفار وهنا يمكن ربط الأحداث والفقرات والنصوص بعضها ببعض لكي نحصل على مفهوم واضح لمعنى مُعيّن في الكتاب المقدَّس. هذه القراءة هامة في تكوين المبادئ الكتابيّة الأساسيّة حول كلّ المواضيع المحوريّة التي تشكّل علاقتنا بالله بدءًا بالخلقة وصولاً إلى سكنى الملكوت. من المفيد في تلك القراءة التدوين القصير لملحوظات ومعلومات تتكمّل مع اكتمال الصورة في إجمال الأسفار.

٣ـ القراءة الدراسيّة وهي التي يمكن الاستعانة فيها بمراجع وتفاسير وقواميس لشرح بعض الكلمات التي تزيد من عمق الفهم. وهدف تلك القراءة الوصول إلى فهمٍ أعمق حول موضوعٍ ما أو لتوضيح أي خلل قد يطال التفسير بسبب أيّة مؤثرّات شخصيّة أو تربويّة أو تعليميّة أو ثقافيّة أو مجتمعيّة. هنا تكون القراءة ضابطة لتفصيلات المفاهيم حتى يكون وعي القارئ مرتبطًا بالأحداث كما هي في وعي كاتبها من الأنبياء أو الإنجيليين، لا كما درج الناس على نقلها مشوبة بما انتقل إليهم من تأثيرات واعية أو لاواعية.

٤ـ القراءة التحضيريّة وهي القراءة التي من خلالها نُحضِّر موضوعًا ما نتتبّعه في النصّ الكتابي حتى يمكن إلقائِه ككلمة أو درس أو محاضرة فيما بعد. وتلك القراءة تتميّز بالتركيز على نقاط محوريّة فهي ليست قراءة شموليّة ولا تفصيليّة ولكنّها موجَّهة للهدف المراد الوصول إليه من هذه القصة أو تلك الفقرة.

إنّ إدراك نوع القراءة التي أمارسها في وقت مُعيّن يوضِّح لي نوع الثمرة التي أقتطفها من هذا المرج المتّسع. وفي المقابل، خلط القراءات يزيد من التشوُّش ويعطِّل البناء الروحي والبناء المعرفي الذي تتشكّل عليه مبادئي المسيحيّة وكذلك البناء الإرشادي لآخرين من خلال خدمات الكلمة المتنوّعة في شتّى المجالات الكنسيّة.

إلاّ أننا هنا معنيين بالأكثر بالنوع الأوّل من القراءة الحياتيّة الباحثة، في جوٍّ من الصلاة، عن قوّة وعد إلهي واختبار مسيحي وشهادة كنسيّة ولهيب روحي يجعلها تعاين تغيُّرها إلى صورة الربّ يسوع من مجدٍ إلى مجدٍ، حينما تتمسّك بالوصيّة وسط عالمٍ بوهيمي الهوى والوجهة؛ فالكلمة تلدنا ثانيّة، بحسب تعبير الروح على يدّ القديس بطرس (١بط١: ٢٣)، لأنّها كلمة حيّة بقوّة حياة شخص الكلمة غير المائت والحي إلى أبد الآبدين.

في الرسالة التي أرسلها القديس جيروم إلى أوقيانُس متغنيًّا بسيرة فابيولا تلك القديسة التي لا يمكن لمَنْ يطالع سيرتها إلاّ أن يرتبط بها ارتباطًا بفضيلة متجسّدة في امرأة. قال عنها: إنّ رومه بكلّ عظمتها بدت صغيرة جدًّا لا تتّسع لفيض إحساناتها. لقد بنت مستشفيات للمرضى وساعدت الفقراء وأسّست أديرة للرهبان والراهبات وأعتنت باحتياجات المتوحدين في العالم أجمع والتقت بقديسي البراري كالقديس مكاريوس والقديس سيرابيون والقديس أرسانيوس وغيرهم كما التقت بأساقفة المدن العظمى كإبيفانيوس الذي كانت تجلّه كثيرًا وقد تتلمذت عليه. ولم تكتف بعطاءها الفيّاض بل تركت رومة وعاشت راهبة فقيرة في بيت لحم حيث مهد المخلِّص مستبدلة زخارف قصرها المذهّبة بكوخٍ مطلي بالطين لتمارس حياة تقويّة من نوعٍ فريد ونسك لا يضاهيه نسك الرجال. إلاّ أن هناك ملمح كان يميّز تلك المرأة الفاضلة ويفسّر تقواها واتساع رقعة دعوتها، وهو علاقتها بكلمة الله. عن تأثير الكلمة الإلهيّة عليها كتب القديس جيروم:

> كم كان شغفها واهتمامها بالكتاب المقدّس!
> كانت تتصفّح الأنبياء والأناجيل والمزامير
> كمن يبتغي إشباع جوعٍ نهمٍ ..
> لا يضنيها تعلُّم، فكلما ازدادت علمًا تألمت على خطاياها
> وازدادت اضطرامًا كمَنْ يُلقي الزيت على النار.

إنّك حينما تقرأ كلمة الله تختبر الفعل الإلهي بشكلٍ حقيقي بقدر ما تكون في حالة احتياج، وتعلن احتياجك له في الصلاة. ستجد أنّ الكلمة تجيبك على الكثير من التساؤلات التي كنت تبحث عنها، ولكن تلك الإجابة ليست إجابة نظريّة على شاكلة المعادلات؛ فمثلاً حاصل جمع ٢ + ٢ هو ٤، ذلك النمط من الإجابة هو نمط نظري لا شخصي. إلاّ أنّ إجابة الكلمة الإلهيّة تدفع الإنسان لتبني وجهة خاصة في الحياة وتسيّره على الطريق الملائم له لذا فهي إجابة شخصيّة للغاية، من هنا يمكن أن نطلق على الإجابة أنّها إجابة فاعلة وليست خياليّة.

ولكن في كلّ الأحوال، لا تحوّل كلمة الله كشكل من أشكال معرفة الغيب أو ضربات الحظ عن طريق فتح أي صفحة من الكتاب المقَّدس لتبحث عن رسالة شحصيّة وإجابة لحظيّة! تلك طريقة خاطئة بل وخطيرة في التعامل مع كلمة الله لأنّ الله يجيب بتكوين مفاهيم تتحوّل لأفعال في حياة الإنسان المنقاد بالروح القدس والخاضع له، لذا فالإجابة ليست على الإطلاق بكلمات مقتطعة من سياقها، كما أنّ الله يجيب مَنْ تعوّد أن يرصد الأجوبة في النصّ الكتابي وهو الأمر الذي يحتاج إلى التمرُّن لتبقَى لنا الحواس المُدرّبة كما تحدَّث القديس بولس.

قراءة كلمة الله وحضور الله في كلمته تجعلنا لا نندهش حينما نجد أنّه في الكنيسة يجب على كلّ الحاضرين الوقوف بوقار أثناء قراءة الإنجيل المقدّس وكأننا أمام المسيح نفسه والذي يحادثنا عبر المنبر؛ هنا القراءة تنقلنا إلى أجواء أورشليم واليهوديّة ولكن فقط بالروح القدس. كما نجد أنّ الشموع التي تحيط بالكتاب المقدَّس كإعلان عن طبيعة كلمة الله الناريّة التي تدخل إلى القلب لتشعله بالحبّ من نحو الله. لذا فإنّ ما تمارسه الكنيسة من ترتيبات ذات مدلول أثناء قراءة الإنجيل تسعَى بها إلى تحرير عقل الإنسان ولو للحظات ليدرك الحقّ الكامن والمُعْلَن من على المنبر الإلهي.

لذا نُقدِّم التمجيد لله قبيل القراءة مباشرة قائلين: "المجد لك يا ربُّ" Ⲇⲟⲝⲁ ⲥⲓ Ⲕⲩⲣⲓⲉ̀ لأنّ الله بالفعل حاضر ويبذر كلمته في كلّ قلبٍ تهيّأ لاستقباله. وهنا تستقبله الكنيسة برفع تسابيح المجد له إذ أنّ "المجد لله في الأعالي" هي التسبحة الخاصة بالتجسُّد وحضور الله إلى أرضنا البشريّة. إنّ الكنيسة دائمًا ما تُرْسِل تسابيح المجد حينما تدرك الحضور الإلهي.

كلمة الله تُغيِّر الإنسان بالروح القدس وهذا ما لا يمكن لأي كلمة أخرى أن تفعله، لأنّ كلمة الله تدخل إلى العمق في الإنسان لتهبه القوّة على تحويل التعاليم إلى أفعال تُمجِّد الله وتؤسِّس لملكوت الله على الأرض. فعلى سبيل المثال فإنّ تعاليم التيباتاكا البوذيّة (كتاب يحوي تعاليم بوذا) بها مبادئ سامية للغاية تسمو في كثير من نصوصها عن تعاليم معتقدات في محيطنا الشرقي، إلاّ أن تلك المبادئ تحتاج إلى قوّة لتفعيلها في الحياة بل والتمتّع بثمارها إن قُدِّمَت في الاتجاه الصحيح وهو ما لا يوجد في البوذيّة لأنّ البوذيّة كما يرى أغلب الدارسين لها هي ديانة بلا إله أو يمكن القول إن مفهوم الإله بها غامض وهلامي فهو أشبه بقوّة ما خالدة وغير مخلوقة وعديمة الشكل لذا فإنّ القيمة هنا هي قيمة جزئيّة ونسبيّة وزمنيّة وأرضيّة ومحدودة، الأمر الذي يجعل منها ناقصة في جوهرها. كذلك فإنّ قوّة تطبيق المبادئ

الساميّة غائبة وتعتمد على القدرة الشخصيّة ممّا يجعل منها نُخبويّة أي أنّها تعتمد على بعض الأشخاص ذوي القدرات الخاصّة لتطبيق مبادئها.

في المقابل فإنّ كلمة الله لا تعطي مبادئ مجرّدة يمكن أن يطبقها أولئك الأقوياء والمميّزين ولكنها تعطي قدرة المسيح بالروح القدس لكلّ مَنْ أقام عهدًا معه في مياه المعموديّة وتقبّل سكنى الروح القدس بالميرون لينال القوّة لتطبيق وصايا الإنجيل بقدر ما يفتح قلبه للروح القدس بالإيمان والطاعة والخضوع لمشورته. إذًا فالقدرة لتطبيق مبادئ الإنجيل ليست قدرات شخصيّة ولكنّها قدرات مَنْ قَبِلَ قوّة الروح لينال قوّة من الأعالي.

لهذا أنا مسيحي لأنّي اختبرت قوّة كلمة الله واختبرت ضعف كلّ كلمات العالم من أن تحركني خطوّة واحدة نحو البرّ أو الاستقامة أو الفرح أو السلام والتصالح مع الذات ومع الآخر. كلمات العالم وإن كانت برّاقة وقد تكون نافعة ولكنّها أمام كلمة الله كنقطة مياه أمام محيط متّسع لا تستطيع أن تحمل على متنها قارب سفينتي إلى عمق الحياة والفرح ... لهذا أنا مسيحي ...

إلهي الحيّ، والمحيي كلّ من دَفَنَتْهُ مرارة خطيئته
أدعوك أن ترسل روحك القدّوس لينبِّت، عوضًا عن جهلي، حكمة
فاتحًا بصيرتي على كنوز الحياة المختبئة في كلمتك
لا تدعني أغوص بذهنِ الناقد بحثًا عن علم
بل أسلّم قلبي أمام رياح نعمتك
لترسو به على الموانئ الحسنة في عينيك
فأتذوّق ما تقتطفه يداك غذاءً لجهلي
وترياقًا لجرحي
لأولد من جديد كلّ مرّة أطالع كلمتك بالروح
وانطلق مدفوعًا بطفولة الحبّ نحو أبوّتك الحانيّة
فكلمتك توحّدني بكلمتك
ووعدك يحيي وريقات رجائي الذابل
فإن لم أحيا بكلمة فيك، فمَنْ سينطق لي بكلمة حياة؟
لن أنصت لكلمات موتٍ وإن بَدَتْ في ثياب الحياة
اجعلني أُميّز بين صوتك الإلهي
وصوت ذاتي والعالم الطامح في ذاتي

قل كلمة لأحيا أيّها السيّد .. قل: ليكن نور
انتهر أمواج الظلمة، فأهنأ في مركبك الآمن
واثقًا أنّك معي طوال الطريق.
أمين.

أنا مسيحي لأني تذوّقت قوّة حضور المسيح في للمادّة

نقرأ في حياة البابا إسحق (٤١ من باباوات الإسكندريّة) والتي نشرتها دوريّة مدرسة الإسكندريّة مترجمة عن النصّ القبطي في لهجته الصعيدي، في عددها الحادي عشر، ما يلي:

"في كل مرةٍ كان يصعد[البابا إسحق] إلى المذبح ليُصْعِد الذبيحة، كانت تذرف عيناه الدموعَ منذ أن يبدأ الأنافورا المقدسة (القُدَّاسَ الإلهي) إلى أن يكمل الخدمةَ. وعندما كان يصل إلى اللحظة التي يحلُّ فيها الروحُ القدس على المذبح، كان يعاين الروحَ القدس نازلاً على القرابين، مُحَوِّلاً الخبزَ والكأسَ إلى جسد المسيح الإلهي. وعندما كان يرى هذا القديسُ هذا الاستعلانَ، كان يتملَّكه خوفٌ وسعادةٌ. وفي الحال كان يشع وجهُه نورًا ...

وحدث ذاتَ مرةٍ، بينما كان أبونا يصلي (القُدَّاسَ)، أن أتى الملكُ [عبد العزيز بن مروان] عابرًا مع كلِّ حاشيته. وأتى خارج باب الكنيسة، ونظر نحو الداخل، فرأى رئيسَ الأساقفة واقفًا على المذبح، تحيط به نارٌ، وقوة نورانيّة خلفه تقوّيه. فلما رأى الملكُ هذا الاستعلان العظيم، انذهل، وقال لواحدٍ من السائرين معه: 'اذهبْ واستدع رئيسَ الأساقفة إليَّ'، مريدًا أن يعرف أمرَ القوة التي تحيط به، ومن هو هذا الذي يتكلَّم معه في الموضع الذي هو واقف فيه. ولما كان يريد أن يرسل الرجلَ إلى الداخل، رأى الملكُ القوةَ تسير نحوه، فأخذه خوفٌ. فهرب بسرعةٍ، هو ومن معه، ولم يرَ أحدٌ الاستعلانَ سوى الملك وحده. ولما دخل بيتَه، رقد من الرعب وصار كميتٍ، ولم يقدر على الكلام في ذلك اليوم. وأتى الكُتَّابُ ودخلوا إليه، فوجدوه راقدًا مريضًا من الخوف. فسألوه عن سبب المرض، فأظهر لهم الأمر الذي رأته عيناه. فلما سمعوا، تعجَّبوا ومجَّدوا الله.

وعلى ذلك أرسل (الملكُ) واحدًا منهم واستدعى رئيسَ الأساقفة. فلما أتى إليه، سأله قائلاً: 'في الوقت الذي كنتَ واقفًا فيه على المذبح، مع مَنْ كنتَ تتكلَّم وقتذاك؟ وما هذا الذي رأيتُه واقفًا بجوارك كنارٍ منيرة؟' فأجاب رئيسُ الأساقفة القديس وقال للملك: 'كنتُ أتكلَّم مع إلهي'، ولم يكن رئيسُ الأساقفة جاهلاً بالقوة التي تقف معه في كل وقتٍ يصعد فيه إلى المذبح مثل (ما حدث) أيضًا في هذه المرة. فقال له الملكُ أيضًا: 'وهل في كل مرةٍ تصعد فيها على المذبح ترى إلهك؟' فقال رئيسُ الأساقفة: 'نعم'. حينئذ تعجَّب الملكُ وقال لرئيس الأساقفة: 'إيمانكم عظيم أنتم، أيها المسيحيون'."

إنّ ما يحدث في القدّاس الإلهي هو التعبير عن نمط المسيحيّة التي نؤمن بها والتي حوّلت المادّة إلى قالب يعلن عن حضور إلهي؛ فالله لم يسكن وسط البشر في فترة تواجد المسيح على الأرض فقط، ولكنّه يسكن بيننا بشكلٍّ دائم من خلال جسده الحقّ ودمه الحقّ المُقدَّمان في شكلٍ ماديٍّ لكلّ مَنْ يُعلن إيمانًا واحتياجًا لحضور الربّ يسوع الدائم في عالمه.

هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ

(مت ٢٨: ٢٠)

هل سبق لك وأن توقّفت أمام الجسد الإلهي وتضرّعت أمامه أن يُغيِّر قلبك من كلّ ما علق به من شهوات العالم؟ ومن بعد التناول من الجسد والدم، شعرت في قلبك بنار إلهيّة، وكأنَّ هناك لهبًا علويًّا بدأ يحرق كلّ زوان في قلبك يريد أن يختلط بالحنطة الجيِّدة.

مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي

(يو ٦: ٥٧)

نعم تلك حقيقة؛ فجسد ودم المسيح المُقدَّم على المذبح مجّانًا لك قادران على غفران الخطايا وتثبيتك في الحياة الأبديّة. هذا هو فعل الجسد / الدم كما يصدح به صوت الكاهن في القدّاس الإلهي، فيقول:

يُعْطَى عنّا خلاصًا،
وغفرانًا للخطايا،
وحياة أبديّة لمن يتناول منه.

يمكن أن يقف البعض مُتَشكِّكًا في حقيقة هذا الخبز وهذا المزيج من عصير العنب وكيف تصير له تلك الإمكانيّة الهائلة! وهنا له كلّ الحقّ فلم نسمع فيما يقدِّمه لنا العالم من أفكار حول الله مثل هذا على الإطلاق؛ أن يقدِّم إله نفسه لأحبائه في هذا الشكل حتى يطمئنوا لحضوره لهم وفيهم ويختبروا مذاقة جديدة بقدر ما يفتحوا قلوبهم لسرّه الذي يعلنه لخواصّه الأحبّاء.

ولكن دعني أعود بك إلى الوراء قليلاً حينما وقف الربّ يسوع أمام اليهود المجتمعين بدءًا بالقادة والناموسيّين والكتبة والفريسيّين نزولاً إلى أبسط اليهود من الرجال والنساء، موضِّحًا لهم أنّه الخبز الحيّ النازل من السماء والذي من خلال أكله يمكن للإنسان أن يحيا.

أعتقد أن حجم الشك يتضاعف أمام شخصٍ يقول لهم أنا مَنٌّ وخبزٌ ويجب أن تأكلوني؟؟!! بالفعل يبدو هذا الحديث حديثٌ جنونيٌّ إن أغفلنا النظر عمّن هو قائله. فمن يستطيع أن يحتمل هذا الكلام

لأنّه صعبٌ، وهو بالفعل ما قاله اليهود المجتمعين، بل إن بعض تلاميذه إن لم يكن الكثيرون توقّفوا عن تبعيّته بعد هذا التصريح الصادم الذي لم يَرْضَ أن يتراجع عنه طلبًا لإرضاء الجموع!!

وهنا السؤال الذي يفرض نفسه إن كنت في مكان أولئك اليهود ولك من الخلفيات الفكريّة ما لهم ومن المعرفة الدينيّة المسيانيّة ما لهم، وجاءك أحدهم ليقول إن لم تأكلني ستموت لأني أنا المَنُّ الحقيقي عوضًا عن المَنِ الذي أكله الآباء الأوّل في الصحراء وماتوا، ماذا ستكون ردّة فعلك؟؟ أعتقد أنّه لن يختلف عن ردّه فعل غالبيّة اليهود الآمنين في قناعاتهم الخاصّة.

ولكن، إن كان القائل هو المسيح الذي له سلطانٌ على الطبيعة والشياطين والأمراض والموت والحياة والطعام والشراب وغفران الخطايا، وذلك بشهادة العديد من الشهود، وقتها يجب أن نتمهّل قليلاً في الحُكْمِ على كلماته لأنّ قائلها ليس شخصًا عاديًّا .. إنّه ذو قدرات إلهيّة دون شكٍّ.

وهنا يكون أمامنا خيار من اثنين:

١ـ أن نصدّق منطقنا المبني على استحالة هذا الأمر من خلال معارفنا وقناعاتنا الذاتيّة وخبراتنا الواقعيّة والتاريخيّة.

٢ـ أن نصدّقه هو خاضعين لما يقوله منفتحين على منطقة جديدة خارج منطقنا الذاتي ومعارفنا الماضيّة.

وهنا الخيار بين "ما أعرفه أنا" وبين "ما يعرفه هو"، إنّه خيار بين "التمركز في الذات" أو "التمركز في المسيح"!!

وهنا من المهم أن نقول إنّ تحويل الأمر إلى مجرّد رمز سطحي وكأنّ الأمر رفاهة فكريّة لا حقيقة مباشرة هو بمثابة رفض ولكن في ثوبٍ من التديُّن!! ليس هذا هو الخيار الذي يبحث عنه المسيح.

يكتب البابا ثيوفيلُس السكندري في عظته عن تأسيس سرّ الإفخارستيا، فيقول:

تعالوا، إذن، يا كلّ مَنْ يحتفل بالأسرار المقدسة،
يا كلّ مَنْ يشترك في الدعوة السماوية،
ولنلبس بمنتهَى الحماس ثوب الزفاف الخاص بالإيمان
الذي لا تشوبه شائبة
ولنركض معًا إلى العشاء السري.

إنّ كلمات المسيح حول الأكل من جسده والشرب من دمه لا يجب أن نأخذها بشكلٍ رمزيٍّ أو نأخذها باستخفافٍ وكأنّها كلمات قيلت عَرَضًا وعفوًا!! إنّها كلمات مقصودة وموجّهة بالتمام إلى كلّ مسيحي يبغي الاتحاد بالمسيح ولكن بذهنيّة أخرى غير التي قد شكّلها العالم له ...

ولكن قد تقول، وما الذي يعنيه هذا في إيماني المسيحي؟؟؟ الأمر له عدّة جوانب، منها:

١ـ يجب أن تدرك أنّ جسد ودم الربّ يسوع هو إعلانٌ عمليٌّ دائمٌ للحبّ الذي من أجله تأهّلت لتشترك أنت في تلك الوليمة الإلهيّة التي لا يمكن ولا لملائكة السماوات أن تشترك فيها. وحينما تتذكّر مقدار الحبّ تعرف أن مَنْ تتبعه ليس إلهًا عاليًّا في برجٍ من صناعة الأساطير مُبْتَعِد عن البشر وغير مهتم بحاجاتهم وطلباتهم، ولكن على النقيض هو مهتمٌ للغاية حتى النزول والتجسُّد والصليب، بل وحتى إنّه يقدِّم ذاته وحياته في شكلٍ مأكلٍ ومشربٍ. هل يوجد مثيل لهذا الإله الذي يُحبّ حتى الجنون بحسب تعبير العالم الذي يقول إنّ هذا جنون!! بالفعل إنّه جنون الحبّ لأنه يفوق قدرات العقل على الاستيعاب ... إلهًا يحبّني حتى الجنون يستحق بالفعل أن أتبعه وأسير خلفه وأشترك في وليمته؛ في جسده المكسور ودمه المسفوك وأنا في حالة من الخشوع أمام عظمة السرّ وعظمة الحبّ ...

٢ـ إنّ الحبّ يستجلب الحبّ؛ لذا فبقدر حبّ المسيح المُتجسِّد حضورًا في الخبز والخمر على المذبح بقدر ما يُحوِّل حبّنا للعالم من حولنا إلى حبٍّ باذلٍ حتى آخر المدى. نعم فمَنْ يتذوّق الحبّ الإفخارستي لا يمكن أن يظل عاقلاً في محبّته ولكنه سيحبّ حتى آخر المدى .. حتى الأعداء .. ألم تكن تلك وصيّة المسيح التي يراها العالم أيضًا جنونيّة!!! هذا لأنّهم لم يدركوا أنهار المحبّة التي تغمر القلوب الخاضعة والمتشوّقة للمخلِّص والتي تغرق فيها أيّة بذار للكراهيّة فلا تنبت بُغْضَة وقساوة ... محبّة المسيح لنا تجعلنا نصبح "سكارى بحبّة" بحسب تعبير مار اسحق، ويا له من سُكْرٍ مقدّس!

٣ـ ما قام به المسيح يتناغم تمامًا مع تجسُّده؛ ففي التجسُّد أخذ طبيعتنا البشريّة ليهبنا الخلاص والفداء الإلهي لننال به شركة من جديد، فيه، مع الآب. وفي الإفخارستيا اتّخذ من ثمار الأرض موضعًا لحضور جديد، يعطي من خلاله كلّ ثمار خلاصه الإلهي لكلّ مَنْ يَقْبَل. فهو يعطي لنا في قالب من ثمار الأرض (الخاضعة للعنة الموت) ثمار فداءه (للحياة والبركة إلى الأبد). في كلا الحالتين؛ التجسُّد أو امتداد فعل التجسُّد الإفخارستي فإنّ المادة حاضرة بقوّة لتنال شكلاً جديدًا ووظيفة جديدة وإمكانيات جديدة فقط بالحضور الإلهي والفعل الإلهي. لذا فقد وقفت المسيحيّة بصرامة منذ العصور المبكّرة ضدّ كلّ مَنْ نادى بأنّ المادّة شرٌّ وأنّ الروح يسعَى لأن يبيد المادّة الشريرة. فالمادة في الفكر المسيحي ليست

شريرة لأنّها بكلّ بساطة غير عاقلة، ولكن يبقَى الاستخدام الخاطئ للمادّة هو ما يُحوّل اتجاهها من الخير إلى الشرّ، إذًا فالاستخدام والتوجيه الإنساني هو الفيصل وليس المادّة.

إن كان لنا هذا الفكر من جهة المادّة كما كانت الكنيسة عبر العصور فإننا لن نستثقل حضورًا إلهيًّا في المادّة. ولن نتعثـّر من إمكانيّة أن تصير المادة ناقلة لفعل إلهي ولكن في أجواء الصلاة والإيمان. رفض السرّ هو رفض لما أسّس له المسيح بأنّ تطهير الكأس والصحفة (الطبق) من الخارج ليس له قيمة بل تطهير الداخل، أي نوايا القلب لا شكل المادة. بل ويسير على التوازي مع كلّ تعاليم المسيح أنّ القلب الإنساني هو مركز البرّ والشرّ ويبقَى استخدامه للمادّة تعبيرًا عن اتجاهات القلب.

٤ـ المادّة في عصرنا الحديث هي وسيلة استهلاكيّة للذّة في أغلب الأوقات لذا فإنّ ارتباطنا السلبي بالمادّة يجعل من قبول اللّقاء بالله في المادّة شيء مرفوض في لاوعي الكثيرين في المجتمعات الحديثة. ولأنّ الطعام أصبح تعبيرًا عن لذة غير منضبطة فإن الحديث عن الله مأكولاً ليهب حياته يبدو غير مقبولٍ لمَنْ تحوّلت عنده الحواس إلى أدوات تحقيق لذّته الخاصّة لا أدوات تحقيق ارتباطه بالله من خلال المادّة عينها. لذا فإنّ قبول الحضور الإلهي والفعل الإلهي في المادّة يجب أن يسبقه تطهير للحواس بالتوبة لتعرف كيف يمكن أن يصير الجسد هيكلاً لله ومن ثم يمكن أن تعرف كيف تصير المادّة ملتقىً مع الله.

٥ـ الحديث عن الإله اللاّمادي الذي يمكن التقائه في كلّ مكان دونما الحاجة إلى مادّة ينقصه الواقعيّة الإنسانيّة، فالله بالفعل لامادي أمّا نحن ففي المادّة نحيا كلّ عالمنا من المهد إلى اللّحدِ. هذا الطرح عن التواصل اللاّمادي يحمل من الخطورة بأنّ المسيح عينه لم يكن محتاجًا للتجسُّد المادي إذ يمكنه الاتيان بخلاص لامادي، ولكن ما لا يُؤخَذ، لا يُخلَّص، بحسب التعبير الشهير للقديس غريغوريوس. إنّ الفكرة بتواصل لامادي مع الله لا تنبت من صميم الإنجيل ولا حياة المسيح ولا واقع التجسُّد ولا مسيرة الكنيسة ولا شكل الحياة المخلوقة ولا أي شيء سوى فكرة نظريّة تداعب الخيال الإنساني بالتحرُّر المطلق من المادّة في عالمٍ لامادّي. إلاّ أنّ المسيح لم يرفع أتباعه إلى نمط الكائنات اللاّماديّة ههنا على الأرض بل علّمهم كيف يحوّلون المادّة بالاستخدام الحسن والمُقدَّس إلى أدوات تمجيد لله وبهذا فإنّهم يجعلون من المادة شريكة في تمجيد الله وبهذا يتحقّق المعنى المخفي في تسبيح المرنّم بأنّ السماوات تذيع مجد الله والفَلَك يخبر بعمل يديه. فالإنسان المغيّر للمادّة بتحويلها إلى أداة التقاء بالله أو طاقة تسبيح وحمد وتمجيد لله يحقّق مشيئته من الكون المخلوق في صورة حسنة قبل

السقوط الإنساني. فكما أفسد الاستخدام الخاطئ، بعصيان آدم، الكون المادي، وأصبح في عدواة معه بل وتحت سلطته مع كونه على صورة الله، فإنّ المسيح أعطَى إمكانيّة لكلّ مَنْ جدّد الصورة فيه، أن يُعيد العلاقة مع الكون ويشركه في تمجيد الله بالاستخدام الحسن والمُقدّس.

٦ـ في كلّ أفعالنا التقويّة أو السرائريّة نحن نُقدِّم لله ممّا له (المادّة) ليطهّرها ويغيّرها ويسكب فيها ممّا له (حياته الذاتيّة / فعله الذاتي) لننال نحن الحياة. فدور البشريّة هو تقديم المادّة لله ورفعها له. إن توقفت البشريّة عن رفع المادّة وتقريبها لله فإنّها تصنع فجوة بين الخليقة والخالق، هي عصيان الإنسان وغربته ومن ثمّ غربة الخليقة فيه عن الله.

يكتب القديس بولس: « لأَن انْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلاَنَ أَبْنَاءِ اللهِ » (رو٨: ١٩). هذا يعني أنّ الخليقة (أي كلّ ما هو مخلوق) يترقّب فعل الإنسان من قبول البنوّة الإلهيّة في المسيح لاستعادة التناغم المفقود للخليقة بتقديمها لخالقها لسكب نعمته الإلهيّة من خلالها.

وفي المقابل إن أخفقنا في ممارسة دورنا البنوي في الابن فإنّ الخليقة ستظلّ تئن والعالم سيتثقّل بالأكثر بخطيئة الإنسان وتغرُّبه عن القصد الإلهي فتتحوّل الخليقة إلى كائن مُتمرِّد يبتلع الإنسان وذلك من خلال سوء الاستخدام الإنساني عينه. فها هي القنابل الذريّة والنوويّة والأسلحة البيولوجيّة والكيماويّة تهدّد وجود الإنسان نفسه مع أنّها مادّة من صنيعة الإنسان ولكنّها من صنيعة شرّ الإنسان وسقوطه بتحويل المادّة في اتّجاه عكس ما خُلِقَت له لتحقّق مشيئة الشرير في نشر الفساد والموت والخوف والقلق وسط العالم. وها هم ثلاثي الجسد والطعام والمال يستعبدون الإنسان بقيود اللّذة متحوّلين عن هدفهم الأصلي من حياة الإنسان إلى دماره، ومخلّفين ورائهم أمراض وأحقاد وجرائم لا حصر لها.

إمّا أن نقدّم المادّة لله ليحوّلها لنا لنعاينه / نعاين حضوره / نستقبل نعمته وإمّا نقدّمها للشيطان ليحوّلها إلى أداة تسلُّط على البشريّة يزرع بها بذور الموت في قلب الكائن البشري. ولا يوجد امتناع عن الخيار لأنّنا في محيط المادّة نحيا اللّيل والنّهار.

لهذا أنا مسيحي لأنّ فعل المسيح الفدائي قد عدَّل من مسار الكون والخليقة والمادّة لتصير مادّة معلنة لمجد الله على الدوام إن خضعت لتقديس الاستخدام بالصلاة. ليس من مثيل لتأثير المسيح على الكون بأكمله في كلّ معتقدات الشعوب عبر العصور، فهو لم يفتديني فقط بل افتدى ليّ المادّة والزمان

ليصيرا إعلانًا عن حضوره في العالم من أجل العالم ولرفع العالم إلى ملكوتٍ ليس من العالم في نهاية الأمر.

في المسيح، المياه تحوّلت إلى اغتسال للنفس من الداخل، والزيت إلى مسحة للروح، والطعام إلى حياة المسيح المنسكبة فـيَّ، والرسومات على الجدران أو القطع الخشبيّة إلى حضور حقيقي لشخوصٍ من عالم النصرة الكاملة، والشموع إلى إعلان حضرة ناريّة لخدّام ناريين لملكٍ هو نار آكلة ... كلّ شيء تم تجديده على القياس الملكوتي ليصير أداة إعلان أنّ الحياة أُظْهِرَت ولن تختفي بعد بل ستتّجلى في كلّ خليقة الله.

سيّدي وإلهي وربّي يسوع المسيح
لن أحيا فيما بعد منقادًا لحواسي
بل سأحيا بالإيمان الذي زرعته في قلبي يوم عرفتك
لن أرى في المادّة فيما بعد، قبحٌ وشرٌّ وفساد
بل سأراها بعد لمسات الفداء
تحمل النعم والبركات المتساقطة من العلو .. من السماء
سأحب منذ الآن بالعمل والحقّ
سأحبّك بالطعام والشراب وأنا ألتقيك في الخبز والخمر
سأحبّك باللّمس والاحتضان وأنا ألتقيك في الأيقونة
سأحبّك بالصوت والكلمة وأنا ألتقيك في الإنجيل
سأحبك بالأنغام والموسيقى وأنا ألتقيك في العبادة المرتّلة
سأحبّك بالحركة والسجود وأنا ألتقيك في اللّيتورجيا الإلهيّة
سأحبّك بالمادّة التي تقدّست بحبّك المصلوب من أجل البشريّة
سأقدّم لك الكون متهلّل في المحبّة وأنا في محضرك
لتتبارك في خليقتك،
وتنشِد الخليقة كلّها أنك الله وليس آخر
لك المجد مع أبيك الصالح والروح القدس
أمين.

أنا مسيحي لأنّي أدركت أنّ لي قيمة في الحياة

قرأت ذات يوم هذا الخبر الصادم أنّ أحد المراهقين ويدعى "وانغ" يسكن في أحد أفقر الأقاليم الصينية قد اشترى جهازي "آي فون" و"آي باد"، وعندما سألته والدته من أين أتَى بالأموال، اعترف ببيع كليته!!

هذا نموذج الإنسان المعاصر الذي تحاصره قيم الاستهلاك فتجعله يبيع جسده بالمعنَى الحرفي ليقتني أدوات التكنولوجيا!! وهناك على الجانب الآخر، مَنْ تبيع جسدها، وهناك مَنْ يبيع مبادئه، وهناك مَنْ يبيع علاقاته .. إلخ.

إنّ المجتمع المعاصر في حالة فقدان للقيمة الإنسانيّة وفي نفس الوقت تجده يُعلي من القيمة الاستهلاكيّة أو يعيد تقديمها في ثياب القيمة الإنسانيّة! إلاّ أنّ قيم الاستهلاك أصبحت سيّدًا عاتيًّا يستعبد البشر ويجعلهم في حالة من الجوع إلى المزيد والمزيد والمزيد ...

إنّ في بعض بلدان الغرب الآن تجد العشرات من الكنائس تُباع أو تتحوَّل إلى متاحف عامّة أو على أقل تقدير تبقَى مفتوحة لبضعة عجائز يأتين بين الحين والآخر!! في هذا إشارة واضحة إلى أنّ تلك المجتمعات قد استبدلت قيم "الحضور الإلهي في العالم" بقيم "الإنسان أولاً وآخرًا .. الألفا والأوميجا" ولكن بمنطق الاستهلاك من أجل حياة تبدو سعيدة!!

تقول الإحصائيّات أنّه بالرغم من تقدُّم الشعوب في كلّ أسباب ووسائل الرفاهيّة والراحة إلاّ أنّ الإنسان يزداد شعورًا بالوحدة ويزداد شعوره بانعدام المعنَى، بل إنّ معدلات ارتفاع الأمراض النفسيّة تزداد بنسب كبيرة في الدول الصناعيّة الكبرى والتي تهب مواطنيها قدرًا من الرفاهيّة أفضل ممّا تهبه غيرها من الدول. قيمة الأسرة انهارت، وقيمة الزواج تتراجع وخاصّة مع الاتّجاه إلى الارتباط بدون زواج في تلك البلدان.

وعلى الجانب الآخر تجد أنّ الدول التي تحكمها أنظمة شموليّة ديكتاتوريّة قمعيّة سواء بخلفيّة دينيّة أم لا، فإنّ قيمة الإنسان متراجعة بشكل مخيف؛ فالحوادث تجري دون اكتراث من الأجهزة المعنيّة، والتعاملات المجتمعيّة يشوبها التوتر وتعتمد على القبليّة ونصرة الأتباع أكثر من تحكيم القانون، بل ويتم تحريك الجموع والزج بهم في مستنقعات تصادميّة بكلمة واحدة وإن كان ضدّ القانون الحاكم والمُنظِّم للعلاقات في البلاد، كما يتمّ التمييز بين الرجل والمرأة بشكلٍ مهينٍ للمرأة، وكذلك التمييز بين

المواطنين على أساس ديني وعرقي بل وطبقي، كما يتمّ العبث بالطفولة بالعمل المبكّر والزواج المبكّر .. وفي كلّ هذا تختفي قيمة الإنسان الذي يشعر أنه رقم .. نعم رقم لا أكثر وسط عشرات الملايين!!!

إنّ إحدى وسائل العقوبة في السجون هي تحويل البشر إلى أرقام فيتم التعامل مع كلّ سجين على أنّه رقم مجرّد، رقم يأكل ويشرب لأنّه انحدر عن السلوك البشري السليم بالجرم الذي ارتكبه!

لذا فالبشريّة الآن تحيا في سجنٍ كبيرٍ خلّقته قوى اقتصاديّة وأيديولوجيّات سياسيّة ودينيّة. هذا السجن مُعدّ جيّدًا ليصير الإنسان فيه منشغلاً برفاهته / بطعامه / بحقوقه ليل نهار، ولكن المهم هو أن يبقَى داخل جدران هذا السجن الكبير. وحينما يبدأ أحدهم في التفكير في قيمة ومعنَى للحياة فإنّه يدرك وجود الجدران، وقتها يخرج خارجًا ليتنسّم هواء نقي .. هواء الحريّة الحقيقي .. حينئذ يدرك أنّ هناك حياة خارج السجن الكبير والذي يبدو في بعض الأحيان أنّه مُذهَّب ..

تلك النقلة خارج جدران السجن هي تحويل الأعين والقلب والفكر إلى أعلَى بحثًا عن المعنى عوضًا عن البحث في إطار أفقي أحادي. فإدراك وجود الله إدراكًا شخصيًّا لا إدراكًا جمعيًّا يساعد الإنسان على رصد الملامح الأصيلة للوجود الإنساني ومعناه وقيمته وغايته والتي لا يمكن أن تفسّرها كلّ وسائل الراحة وكلّ أسباب العلم داخل جدران السجن الكبير.

خارج السجن يدرك الإنسان أنّه ليس رقم يتوسّط أرقام يأتي إلى الوجود ويرتحل عنه في صمتٍ وإن في شهرة تطبق الآفاق؛ فالآذان تنغلق بالموت عن سماع المديح، والأعين تنغلق بالموت عن رؤيّة الأتباع والأحبّاء، ولن يتبقَى للإنسان إلاّ صمت مطبق! إلاّ أنّ الروح وقتها لن تكون صامتة بأي حالٍ فهي إمّا مُسبِّحة على اجتيازها رحلة الإيمان على الرجاء، وإمّا مُنتحبة على إخفاقها في رصد كلّ نداءات الحياة الإلهيّة المالئة للوجود.

خارج السجن رداء البنوّة الإلهيّة لامع ينتظر مَنْ يرتديه ليدرك المعنَى الحقيقي لوجوده في الحياة كابن لله بالنعمة عليه أن يبذر بذور الإيمان والحبّ في العالم ليأتي بها أثمار إلى الآب في رحلة كلّها بهجة بنوّة واختبارات أبوّة غزيرة العطاء والحبّ.

إنّ الإنسان في المسيحيّة أو بالأحرى في المسيح ليس رقمًا بل ابنًا مُقرَّبًا مُحبّبًا للآب. لا يوجد معتقد آخر يتعامل فيه الله مع أتباعه أنّهم أبناء سوى في المسيحيّة وذلك لأنّه ليست بنوّة للآب خارج عن الابن الوحيد يسوع.

لأنّكم جميعًا أبناءُ اللهِ بالإيمان بالمسيح يسوعَ

(غل٣: ٢٦)

والربّ يسوع كابنٍ للآب بطبيعته الإلهيّة السابقة على بدء الأزمنة ينقل لنا نبض الآب ومشيئته من جهة خليقته ..

لا أعود أُسَمِّيكُم عبيدًالأنّ العبدَ لا يعلمُ ما يعملُ سيّده
لكنّي قد سمّيتُكُم أحبّاء
لأنّي أعلمتُكُم بكلّ ما سمعته من أبي

(يو١٥: ١٥)

هذه الحقيقة يجب أن تكون حاضرة على الدوام حينما نتحدّث عن المسيحيّة التي حوّلت الإنسان من رقم مهمل أو رقم مستعبد أو حتى رقم مُتعبِّد إلى ابنٍ محبوبٍ حاضرٍ على الدوام في قلب الآب وله ميراث مع المسيح وفيه.

إنّ الله بالنسبة لك ليس سيّدًا يحتاج منك الإكرام والعبادة والذبائح ليهنأ بينما أنت تشقَى! ولكنه أبٌّ يريد لك الراحة والهناء والحريّة من خلال تواصل حيّ ودائم وواعٍ معه. هناك فارق كبير بين الاثنين.

الله لا يمنحك قيمة مضافة إن اتّبعته فيُسيّدك على آخرين!! كلاّ هذا ليس إلهك الذي تتبعه بأي حال من الأحوال. ولكن الله قد منحك القيمة منذ البدء بأنك مخلوق على صورته ومثاله. بك ملامح إلهيّة في وجدانك وكيانك. وبك حسٌّ إلهيٌّ ونبضٌ إلهيٌّ وفكرٌ إلهيٌّ عليك أن تكتشفه لتتمتّع من خلاله بمعرفة مَنْ أنت على حقيقتك، لا مَنْ أنت بعد تشوّهات الخطيئة وأكاذيب العالم ومبادئ التراب.

نحن في المسيحيّة نكتشف قيمتنا التي قد غرسها الله في قلب كلّ واحد منّا. فالله يحبّك بغض النظر عمّا تفعله. بل إن الخطيئة لا تجعله يحبك بقدرٍ أقلّ، ولكن تجعله يخشَى عليك بقدرٍ أكبر. تصوّر إنسانًا يرى ابنه ينحدر نحو جَرْفٍ وهو راكبٌ درّاجته والأب يصرخ فيه بالاستماع والعودة وهو لا يستمع! هل يغضب منه الأب لأنّه أهانه بعدم سماع كلماته المُحذّرة أم أنه يخاف عليه من عواقب عدم الإصغاء للكلمات المرشدة؟ بالطبع يخاف عليه لأنه لا يريد لابنه أن يسقط من على هذا الجَرْف المرتفع لئلا يُجْرَح. الله يخشَى علينا من جراحات الخطيئة والتي تجعلنا ننسَى جمالنا الحقيقي وقيمتنا

الحقيقيّة فنقبل بتشوهاتنا وكأنّها جزءٌ أصيل من تكويننا! تلك هي الخديعة العظمَى التي يجب أن نتصدّى لها ليل نهار مهما كان الثمن.

ولكنك قد تقول إنّ الحديث عن قيمة الأصل والخلقة على الصورة وغيره هي أمورٌ عامّةٌ وليست قيمة شخصيّة! دعني أُذكّرك أن كلّ رجال الله وقدّيسيه عبر العصور اكتشفوا قيمتهم الشخصيّة أثناء سيرهم معه، ومن اكتشاف الأصل أدركوا ما يجب عليهم أن يُحقّقوه لكيما يكتمل المثال ويشابهوا الأصل الأبدي، الربّ يسوع.

لقد اكتشفوا رسالتهم الهامّة والخطيرة من نقطة انطلاق هي التساؤل: مَنْ أنا بالحقيقة؟ ومنها بدأت الإعلانات أثناء المسيرة تتوالى: إلى أين يجب أن أسير؟ وأي الطرق عليّ أن أجتاز؟ وأي الأشجار عليّ أن أكون في حديقة الآب السماوي؟

تلك الدعوة والمسيرة في بدايتها لا يراها المحيطون ولا يستوعبها الأقرباء ولا يُثمّنها الأصدقاء، إلاّ أن عظمة الرسالة تتضّح فيما بعد. ولعلّ من الأمثلة التي تثير الدهشة أنّ أحد أعظم العقول في تاريخ البشريّة وهو ألبرت أينشتاين كان حتى الرابعة من عمره مُتأخّرًا في النطق، وهي من علامات وعوارض مرض التوحُّد!! فما الذي كان سيحدث إن اقتنع من حوله بتلك الحالة وتمّ التعامل معه كشخصٍ مُعاق ذهنيًّا أو متأخِّر ذهنيًّا؟!! بالتأكيد فإنّ البشريّة كانت ستحرم من هذا العقل الاستثنائي.

ولكن إن انتقلنا إلى المستوى الروحي، يمكن أن نتساءل؛ ما قيمة إبراهيم يوم أن كان ساكنًا في أور الكلدانيين باسم ابرام؟ هو واحد وسط عدّة آلاف ليس به شيءٌ ظاهرٌ يدل على قيمته الحقيقيّة كعمود منير مزمع أن يشرق بإيمان ليس له مثيل على الأرض. ولكن الآن نحن ندرك مَنْ هو إبراهيم وما هي قيمته الحقيقيّة لأنّه اكتشف القيمة وهو سائر بالطاعة لله فعرف العالم كلّه عبر العصور مَنْ هو إبراهيم.

وهكذا موسى، فهو ذلك الشخص الذي يسكن في الصحراء الجرداء بعد أن قتل المصري ولا أحد يعرفه بعد، بل ولا أحد يذكره أو يتذكّره، ولكن الله لا ينسَى أحدًا، بل يرى ما لا يراه أحدٌ من نوايا القلب واشتياقات النفس ولهب الإيمان واستعداد الطّاعة وقوّة الصبر ودأب البحث، ليهبه اكتشاف القيمة الإنسانيّة من خلال رسالة تجعل لحياته هدفٌ يستحق العيش من أجله بل والموت من أجله إن اقتضَى الأمر.

ومَنْ هو صموئيل وداود وسليمان وأرميا وإشعياء ودانيال ونحميا وملاخي ويوحنا المعمدان؟ بل مَنْ هي مريم فتاة الناصرة، لا يعلم أحدٌ عنها شيء؟! والآن لا أحد في العالم كلّه عبر ألفي عامٍ لا يعلم مَنْ هي مريم وما هي مكانتها الفريدة.

مَنْ هو بطرس ويوحنا ويعقوب صيادي السمك البسطاء؟ مَنْ هو بولس وبوليكاربوس وإغناطيوس الأنطاكي وإيريناؤس ويوستين الشهيد؟ مَنْ هي بربارة ودميانه ومارينا وأناسيمون وإيلاريه؟ مَنْ هو أثناسيوس وكيرلس وغريغوريوس وباسيليوس؟ مَنْ هو مينا وجرجس وفيلوباتير وقزمان ودميان؟ مَنْ هو أنطونيوس وبولا ومكاريوس وموسى الأسود ومكسيموس ودماديوس؟ مَنْ هو أبرام الأسقف والأم إيريني والبابا كيرلُّس؟؟ ... إلخ.

كلّ هؤلاء وألوف غيرهم ساروا مع الله فاكتشفوا قيمتهم الإنسانيّة واكتشفوا رسالتهم المسيحيّة فعاشوا حياتهم وهم سعداء بالكشف الأعظم في الحياة: "أنا في المسيح". وإن كانت مسيرتهم تخضّبت بدماء، واثخنت بجراحات، وترضّضت بشتائم وهزء وتشويه سمعة، ونزفت بأعراق على التقوى وأسهار وأنّات جوع وعطش ووحدة وشظف عيشٍ ...إلخ، كلّ هذا بالنسبة لهم كان نفاية لأنّهم اكتشفوا المسيح .. اكتشفوا المعنَى الحقيقي للحياة .. اكتشفوا ما يملأ الفراغ الكياني العميق الذي لم يستطِع العالم ولن يستطيع أن يَسدّه ... وكأنّهم يقولون بحسٍّ واحدٍ عبر العصور: لقد وجدنا المخلِّص ومعه لا نريد شيئًا من هذه الأرض الفقيرة المعدمة والتي تستعطي من الزمان لياليها وأيّامها. نعم فالأرض لا تُعطي معنَى للإنسان بل في ارتباط الإنسان بها سلبًا فإنّها تُشوِّش على المعنَى الأصيل الذي خُلِقَ من أجله الإنسان.

إنّ قيمة الإنسان تتجلّى بشكلٍ أوضح بقدر استعداده للتضحيّة بالقليل من أجل ملكوت الله .. باستعداده أن يمسك المحراث ولا ينظر إلى الوراء .. باستعداده أن يسير خلف الربّ يسوع ولو على دروبٍ غير مأهولة بالمارّة وغير آمنة؛ فالربّ هو حصن الحياة فممّا أو ممّن تجزع نفس الإنسان؟!!

هناك مَنْ يكتشف قيمته الإنسانيّة ولكنّه لا يبحث عن مصدر تلك القيمة لكيما يستطيع أن يُجدِّد تلك القيمة بالرجوع إلى النبع على الدوام ..

ولكن هناك مَنْ يكتشف قيمته الإنسانيّة ويكتشف قيمته المسيحيّة وامتياز أن يصير مسيحيًّا سائرًا خلف الربّ يسوع، إذ يتحرّك نحو الشمس الذي منها تتولّد كلّ إشراقة خيّرة في وجود الإنسان ...

يكتب س. إس. لويس:

أنا أؤمن بالمسيحيّة كإيماني بأنّ الشمس تشرق
ليس فقط لأني أراها
ولكن بالأحرى لأني بها أرى كلّ الأشياء.

الكثير من الناس ينادون بقيم إنسانيّة، وهذا شيء رائع نحتاجه وبالأخصّ في مجتمعٍ كالذي نعيش فيه والذي تغيب منه أولى مبادئ قيم الإنسانيّة، ولكن هل هذا كلّ شيء؟؟ بالطبع لا.

فالقيمة الإنسانيّة تجعل من المجتمعات أفضل حالاً ولكنّها لا تجعل من الإنسان أفضل حالاً لأنّ الفراغ الذي في قلبه مازال عميقًا ولا يوجد ما يملأه.

القيمة الإنسانيّة تعمل على الخط الأفقي بين الإنسان والإنسان ولكنها لا تضمن إلاّ ما يُحدِّده القانون الإنساني. ولكن إن انحرف الإنسان وأساء إليك فإن القانون سيعاقبه ولكن لن يمكنه إصلاح ما حدث لك. يظهر هذا الأمر خاصّة في حوادث القتل والإساءة الجسديّة. فالجرح الناتج يكون عميقًا وغائرًا.

بينما القيمة المسيحيّة (اكتشاف قيمة الإنسان في المسيح) تعمل على الخط الرأسي .. في عمق الإنسان .. تداوي أي جرح إنساني .. تُعطي معنىً حقيقيًّا لكلّ ألم مهما كان اتجاهه. بدون تلك القيمة المسيحيّة لن ينجو الإنسان من سطوة جراح العالم وإن بدا متماسكًا. فأكثر الناس تماسكًا هم مَنْ يتألمون بعمقٍ من الداخل ...

حينما تتعاظم تلك القيمة المسيحيّة في حياة البعض فإنّها تداوي جراح الآخرين أيضًا وتحمل عنهم أثقالهم من فيض الحبّ الذي يملأ كؤوس مَنْ اختبروا قيمتهم كأبناء لله. تلك الحقيقة قادرة أن تداوي جرح العالم والبشر الذي دنّس إنسانيّتهم بشكلٍ أو بآخر.

"كانت ماريا في العشرينيّات من عمرها حينما ألمّ بها مرضٌ خطير. دخلت المستشفَى على إثره. كان جلّ ما يؤلمها ليس المرض ولكن رؤية أنّها واحدة من المرضَى وسط عشرات سيموتون في نهاية الأمر وكأنّ قوّة حاصدة عشوائيّة تأتي لتطيح بحياة هؤلاء البشر. فقدان قيمة ومعنَى حياتها وموتها كانت تجربتها الخطيرة التي أثـرت على حالتها الصحيّة بشكلٍ كبير. جلس الأطباء مع أسرتها وأخبروهم أنّ الحالة النفسيّة السيّئة التي تتملّكها قد تُعجِّل بوفاتها وتمنع الأدويّة من تحجيم المرض.

كان والداها ممّن يرون الكنيسة شكلاً من أشكال التديُّن غير المرغوب في البيت. أرادوا حياة سعيدة بدون مُحدِّدات أخلاقيّة للحياة، هكذا اعتقدوا في الكنيسة وكأنّها مجرّد قيد أخلاقي. فكانت تنشأتهم لابنتهم الوحيدة في هذا الاتّجاه ممّا أدى إلى عزوفها عن الله ومن ثمّ الكنيسة.

كان تعريف الحياة في البيت لا يتعدّى اللّذة والرفاهية ولا شيء آخر. ولكن حينما حلّت تلك التجربة بهم أدركوا أنّ الحياة التي كانوا يتوهمونها ليست كالواقع ومن ثمّ أدركوا أن حاجتهم لله ضرورة للحياة.

ذهبوا إلى الكنيسة التي لم يطأوا أرضها إلاّ مجاملة في الأفراح، وتلاقوا مع الأب الكاهن وقصّوا عليه الحكاية. ابتسم في وجوههِم ابتسامةً بدَّدت كلّ مخاوفهم من شماتة في موقفهم القديم. توقعوا منه أن يأتي إلى الفتاة ليُصَلّي لها كالمعتاد إلاّ أنّه طلب منهم طلبًا بدا لهم ثقيلاً أوّل الأمر. أعطَى كلاًّ منهم إنجيلاً وطالبهم بقراءته أولاً والحديث إلى ابنتهم من خلال كلمات المسيح لمدّة ثلاثة أيام، وبعدها يلتقي الفتاة.

وبالفعل بدأ الأب والأم في قراءة يوميّة لكلمة الله، وللعجب، لم يقرأونها بعيونٍ جافّة بل كانت دموع الألم والاحتياج والاشتياق تُبلِّل صفحات الإنجيل شاهدةً أنّ الكلمة حيّة بالفعل. كانوا يلتقون ابنتهم اليائسة ويردّدون بعض العبارات التي كان يقولها الربّ يسوع لمَنْ حوله في مختلف الظروف. بدت الفتاة مندهشة في البداية إلاّ أنّ الاندهاش لم يدم وتحوّل إلى دموع الاشتياق إلى هذا الـ "يسوع" ليأتي لنفسٍ أقفرت من حرِّ الصيف ولم يبق بها ولا نبتةٍ واحدةٍ خضراءٍ من الرجاء والحلم الحيّ. كانت الأم تحتضن ابنتها وهما يطلبان معًا من الربّ يسوع المجيء لتلك الأُسرة التي طالمت طردته من على أبوابها.

وبعد ثلاثة أيام جاء الأب الكاهن وهو يحمل الأسرار المُقدّسة، ولكنّه طلب من الأسرة الخروج وطالب الفتاة المشتاقة للربّ يسوع أن تُطهِّر روحها وتُلقي بحملها على الربّ وهو سيحمله عنها. بدأت الفتاة في الاعتراف وهي مغمضة الأعين ولكنّها كانت غارقة في الدموع. وبعد الانتهاء من الاعتراف ناولها الأب من الأسرار المُقدّسة وهي تقول: أمين تعال أيّها الربّ يسوع، كما طالبها الكاهن أن تتلو. بعد التناول تركها الأب الكاهن وخرج خارجًا والتقَى أسرتها من جديد وطالبهم بالاستمرار في قراءة كلمة الله والمجيء إلى الكنيسة للتناول من الأسرار المقدّسة مؤكِّدًا أنّ مَنْ يلتقي المسيح لن يكون عُرضه لليأس ولن يخشَى الموت؛ فالمسيح يعطي قيمة للحياة ويغيّرها.

بعد أسبوع جاءت الأخبار للأب الكاهن أنّ جسد الفتاة بدأ يستجيب للأدوية وكان هذا أشبه بمعجزة. وفي غضون أسبوعيْن لاحقيْن جاءته الفتاة طالبة أن تخدم المسيح في أفقر الأماكن وأكثرها صعوبة؛ فلقد أدركت أنّ المسيح حاضر بكثافة في وسط الألم الإنساني والمعاناة الإنسانيّة وهناك ذهبت لتخدمه باذلة من الجهد والمال ما يفوق كلّ مَنْ حولها. لقد وجدت القيمة الحقّ في المسيح إذ نقلها من الموت إلى الحياة".

لهذا أنا مسيحي لأنّ قيمتي كمخلوق على صورة الله لا يمكن أن أدركها بعيدًا عن تعرّفي على الأصل؛ يسوع المسيح، واقتفاء آثاره والسير على وقع كلماته ونسمات محبّته التي عطّرت البشريّة بالحبّ.

أنا مسيحي لأنّ قيمتي في المسيح تداوي جراحات الحياة التي تلمس كياني ووجداني الداخلي والتي لا يوجد في العالم مَنْ يستطيع أن يُضمِّد تلك الجراحات لأنّها من العمق بمكان لا تصل إليه أفضل الكلمات، بل وحده فقط مُطهِّر البشريّة بالفداء والذي بآلامه شفينا، لأنّ تعزيته في العمق منّا هي

تعزية مُتألّم من أجلنا .. تعزية حبّ يتلألأ في ليل النفس فيعيد لها الأمل في فجر من الرجاء، وميناء من الأمل لا تخفيه علو الأمواج وضربات العاصفة ولا اتّساع البحار ولا محدوديتها ...

فخلف الليل فجر النور في المسيح ...

وخلف البحار ميناء القيامة في الربّ يسوع ...

لذا نداء النفس لن يتوقّف:

ونتظر قيامة الأموات .. وحياة الدهر الآتي .. أمين.

خاتمة

لا أجد خاتمة أفضل ممّا كُتِبَ في منتصف القرن الثاني في الرسالة المعروفة باسم الرسالة إلى ديوجينيتوس والتي تُظْهِر مَنْ هم المسيحيين لعلّها تصير إلهامًا لنا لندرك ونحيا بمقتضَى الدعوة العليا التي تدعونا ليل نهار، إذ نقرأ:

إنّ المسيحيّين لا يختلفون عن سواهم من أبناء البشر
في الوطن أو اللّغة والعادات.
والواقع هو أنهم لا يقطنون مدنًا خاصة بهم وحدهم،
ولا يتكلّمون لّغة خاصّة بهم،
ولا يعيشون عيشة غريبة شاذّة.
وأن عقيدتهم ليست من مكتشفات أشخاص
فضوليين خياليين متكبرين.
ولا يؤيدون كغيرهم عقيدة من صنع البشر.
ومع أنهم يسكنون في مدن يونانية وغير يونانية
حسب نصيب كلّ منهم،
ويسلكون بموجب عادات البلد الذي يحلّون فيه
من جهة الزي والطعام وأساليب المعيشة الأخرى،
إن أسلوب معيشتهم يستوجب الإعجاب والإقرار بأنه غير متوقَّع.
تراهم يسكنون البلدان ولكنهم غرباء.

هم يشتركون في كلّ شيء كمواطنين
ولكنهم يحتملون كلّ ما يحتمله الغرباء.
كلّ بلد أجنبي وطنٌ لهم.
وكلّ وطنٍ لهم بلدٌ غريب.
يتزاوجون كغيرهم ويتوالدون.
ولكنّهم لا يهملون أولادهم ولا يعرضونهم للموت.
يفرشون طعامهم للجميع ولكنّهم لا يفرشون فراشهم.
هم موجودون في الجسد ولكنهم لا يعيشون للجسد.
يقضون أيامهم على الأرض ولكنهم مرتبطون بوطن سماوي.
يطيعون القوانين المرعيّة
لكنهم يتقيدون بأكثر منها في حياتهم الخصوصيّة.
يحبّون جميع الناس ولكن الجميع يضطهدونهم.
تراهم مجهولين ولكنّهم مُدانون.
يُماتون ولكنهم يُعادون إلى الحياة.
فقراء ولكنهم يغنون كثيرين.
معتازين لكلّ شيء ولكنهم ينعمون بكلّ شيء.
يُفترى عليهم ولكنهم يُبرَّرون.
يُشْتَمون ولكنهم يُبارِكون.
يُهانون ولكنهم يُكرِّمون الآخرين.
يعملون الخير فيُجازون كأشرار،
حينما يُعاقبون (بالموت) يفرحون كأنهم يُقامون إلى الحياة.
يحاربهم اليهود كأنهم أجانب،
ويضطهدهم اليونانيون.
ومع ذلك فالذين يكرهونهم
يعجزون عن ذكر سبب كراهيتهم لهم.
وبالاختصار فإنّ المسيحيّين للعالم كالروح للجسد.
الروح تمتد إلى جميع أعضاء الجسد
والمسيحيون ينتشرون في جميع مدن العالم.
وكما أنّ الروح تسكن في الجسد وهي ليست منه،
فهكذا المسيحيون فإنهم يسكنون في العالم ولكنهم ليسوا منه.

وكما أن الروح غير المنظورة تُحْبَس في الجسد المنظور
فهكذا المسيحيون فإنهم يُعْرَفون كمسيحيين في العالم
ولكن تقواهم تظل غير منظورة.
ومع أن النفس لا تُسيء إلى الجسم
فإن الجسم يكرهها ويحاربها لأنها تعيقه عن الانغماس في الملذات.
والمسيحيون كذلك لا يسيئون إلى العالم
ولكن العالم يكرههم لأنّهم يقاومون ملذاته.
والنفس تحب الجسد الذي يكرهها
كما أن المسيحيين يحبّون الذين يكرهونهم.
وكما أن النفس تُحبَس في الجسد ولكنها تحفظه،
فإن المسيحيين أيضًا يُحْبَسون في العالم
ولكنهم هم الذين يحفظون العالم.
وكما أن النفس الخالدة تسكن في خيمة فانية،
فإن المسيحيين أيضًا يعيشون غرباء بين الأشياء الفانية
منتظرين الخلود في السماء.
وكما أن النفس تكون فى حال أفضل بتقنين المأكل والمشرب
فإن المسيحيين يتزايدون رغم أنهم يُعاقَبون.
هذا هو الوضع الذي وكّلهم الله به
ولا يجوز لهم أن يتخلوا عنه.